من كنوز الإمام أحمد الرفاعي رضي الله عنه

النجم الساعي في مناقب القطب الكبير الرفاعي

تأليف

الولي الكبير أبي بكر بن عبد الله العيدروس

رضي الله عنهما

تحقيق

الدكتور/ علي حسن العريض

رحمه الله تعالى

الناشر

المكتبة الأزهرية للتراث — الجزيرة للنشر والتوزيع

٩ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر الشريف

ت: ٢٥١٢٠٨٤٧

رقم الإيداع	٢٠٠٩/١٦٠٩٥
الترقيم الدولى	978-977-315-213-9

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله الذي اختار من عباده طائفة الصوفية، وفضلهم على الخلق بعد أنبيائه ورسله، وجعل قلوبهم معادن أسراره، وصفَّاهم من كدورات البشرية، وتجلى عليهم بحقائق الأحدية، ومعرفة الصمدية ووفقهم المداومة طاعته، والتأدب بآداب الألوهية، والتزام أحكام الشرع الحكيم، والتأسي بالنبي الأمين، صلوات الله وسلامه عليه، ففازوا بالسعادة السرمدية، ونالوا الفوز الأعظم.

فقد وفقني الله تعالى للاطلاع على كتاب **(النجم الساعى في مناقب القطب الكبير الرفاعي)** تأليف الولي الكامل، أبي بكر بن عبد الله العيدروس، العدني، اليمني الشافعي، وهو مخطوط بغرفة المخطوطات بدار الكتب المصرية في قسم التصوف تحت رقم (٨٢٥٥) فسررت به وانشرح صدري له، لأنه مؤلَّف جليل حافل بتاريخ سيد العارفين، قطب الأقطاب سيدي أحمد الرفاعي، وذكر بعض كراماته الباهرة، وحكمه السديدة، ونصائحه الغالية، وبين الطريقة الرفاعية، وترجم بعض خلفائه الكرام، وقد كنت في شوق إلى معرفة هذه الأمور، ثم أردت تعميم الإفادة بها، فقمت بطبعها سنة (١٩٧٠)، فأقبل عليه السادة أتباع الطريقة الرفاعية وهم كثير ونفدت الطبعة الأولى، ولا يزال الطلب مقبلاً على الكتاب فعزمت على إعادة طبعه حتى يستفيد به أكبر عدد ممكن في

مصر والبلاد العربية والإسلامية، وزدت عليه مقدمة بكلمة عن الكتب التي ألفت في تاريخ القطب الكبير، وقمت بكتابة تعليقات على بعض العبارات الغامضة، ورقمت الآيات القرآنية التي وردت في الكتاب، وخرجت الأحاديث النبوية التي استدل بها المؤلف رحمه الله تعالى، وذلك مساهمة مني في نشر التصوف وإذاعة طريقتهم، لأن طريقتهم طريقة حميدة، ورتبتهم عالية مجيدة، لا يسلكها إلا من أنار الله بصيرته، وأزاح عنه حجاب الغفلة، ووفقه لمرضاته، وكفاه شر سيئاته، وصفى قلبه من دنس المخالفات، وحفظه من عمل الموبقات، وأوقفه على بابه، وعلقه بمحبته، وشوقه لرؤيته وفتح له باب رحمته.

وقد روي عن سهيل بن عبد الله أنه قال: الصوفي من صفا من الكدر وأمتلا بالفكر، وانقطع إلى الله تعالى عن البشر، واستوى عنده الذهب والمدر.

وقد قال الإمام قاضي القضاة تاج الدين تقى الدين السبكى الشافعـــــي: (قد جربنا فلم نجد فقيها ينكر على الصوفية إلا ويهلكه الله تعالى، وتكون عاقبته وخيمة شديدة).

وقد قال محمد بن علي القصاب: التصوف أخلاق كريمة، ظهرت من رجل كريم، وقال السيد الشريف: التصوف هو الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهرا، فيسري حكمها من الظاهر في الباطن، وباطنا فيسرى حكمها من الباطن إلى الظاهر، فيحصل للمتأدب بالحكمين كمال، وقد قيل: إنما سميت الصوفية صوفية، لصفاء أسرارهم، ونضارة آثارهم وقد أبدى بعضهم في لفظ

تصوف مناسبة لطيفة فقال: تاؤه من التجرد وصاده من الصفاء وواوه، من الوفاء وفاؤه من الفناء، فهو تجريد وصفاء، ووفاء، وفناء.

وقال الإمام الجنيد رحمه الله: التصوف إستعمال كل خلق سمي، وترك كل خلق دني، والصوفي في لسان المحققين: هو عالم عمل بعلمه على وجه الإخلاص.

وفى كلام بعضهم: اجتمع رأي العلماء العاملين على تسمية كل من عمل بما علم، وخلص من الآفات (صوفيًا).

وقد كان إمامنا الشافعى ﷺ يجالس الصوفية فقيل له في بعض الأيام: ما استفدت من هؤلاء يا إمام؟ قال: استفدت منهم قولهم: الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك، وقولهم إن لم تشغل نفسك بالخير شغلتك بالسوء والشر، جعلني الله وإياك ممن أخلصوا في محبتهم النية وحشرنا الله في زمرتهم آمين.

كلمة عن تاريخ القطب الكبير الرفاعي

لقد ترجم للإمام سيدي أحمد الرفاعي كثير من العلماء الأفاضل، والسادة المؤلفين، منهم من ترجم له في أثناء مؤلفاته، ومنهم من أفرده بالتأليف وذلك مثل كتاب (البرهان المؤيد) وقد حفل ببعض آثار الحضرة العظيمة، الرفاعية المؤيدة للسنة المحمدية السنية، وذكر بعض ما أثر عنه من أقواله، وحكمه، ومواعظه، وقد ألفه الشيخ برهان الدين علي الحلبي القاهري وقال في مقدمته ما نصه:

قد تلقاه بأكف القبول خلص أولي العرفان، ونظر إليه قديما وحديثا بعين الإجلال أعاظم الفضلاء الأعيان. وكان ذلك من همة من رصعنا عقود هذه الترجمة على ذيل خرقته الفاطمية، ونثرنا جواهرها بنظم نعوته الزكية العلوية ألا وهو الغوث الجليل والعلم الطويل، قطب الأقطاب، رئيس العارفين أولي الألباب، سلطان الأولياء الأنجاب ذو الهمة التي تجعل بإذن الله تعالى الوضيع رفيعا، والبعيد قريبا والعاصي مطيعا، صاحب اليد والمدد الذي لا يجحد، قطب الدوائر الملحق بقدرة الله الأصاغر بالأكابر، سيدنا ومولانا السيد أحمد أبو العلمين، الإمام الكبير أحمد الرفاعي الحسيني ﷺ، ونفعنا والمسلمين بمدده آمين.

وذكره الإمام الفاضل شيخ الإسلام السيد أحمد القليوبى في كتابـــــه **(تحفة الراغب)** وذكره الإمام القطب الرباني، سيدي عبد الوهاب الشعراني في كتابه **(الطبقات الوسطى)**، في الباب الأول.

وتناول ترجمته أيضا صاحب القاموس المحيط العلامة الفيروزآبادي، وترجم له عمه الإمام العارف النحرير، الشيخ البكرى الكبير إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الكازروني، في كتاب باللغة الفارسية سماه **(شفاء الأسقام في سيرة غوث الأنام)**، وترجم إلى العربية.

وقد أفرد لترجمة شيخ مشايخ الإسلام، الإمام المجتهد الحجة العلامة عبد الرءوف المناوي رحمه الله في كتابه طبقات الصوفية المسمى بـــــــــ **(الكواكب الدرية)** وذكر نسبه وسيرته وبعض كراماته، وكثيرا من كلماته فقال: هو أحمد ابن علي بن يحيي بن ثابت بن حازم بن رفاعة الشيخ الزاهد الكبير، أحد الأولياء المشاهير، أبو العباس الرفاعي المغربي، شريف يمني، غاض روض شرفه وهمل على العالم غوث سلفه كان سيدا جليلا، وصوفيا عظيما نبيلا، قدم أبوه العراق وسكن (أبوعبيدة) بأرض البطائح وولد بها صاحب الترجمة، سنة خمسمائة ونشأ بها، وتفقه على مذهب الإمام الشافعى ﷺ، وكتب كتابه **(التنبيه)** ثم تصوف فجاهد نفسه حتى قهرها، وأعرض عما في أيدي الخليفة، وأقبل على إشتغاله بالحقيقة. وقال: ومهر واشتهر وانتهت إليه الرياسة

في علوم القوم [1] وكشف منازلاتهم، وتخرج به خلق كثير، وأحسنوا فيه الاعتقاد.

قال ابن خلِّكان: وهم الطائفة الرفاعية، ويقال لهم: الأحمدية، والبطائحية، ولهم أحوال عجيبة في أكل الحيات حية، والنزول إلى التنانير وهى تضرم نارا، والدخول إلى الأفرنة، وينام أحدهم في جانب الفرن والخباز يخبز في الجانب الآخر، ويوقد لهم النار العظيمة، ويقام السماع فيرقصون عليها بألحان حتى تنطفئ، ويركبون الأسود، ويربون الثعابين، وحكى الشيخ أبو الغنائم: أنه دخل عليه فوجده جالسا وحوله نحو عشرة آلاف من أتباعه فقال له: احمد الله على ما أنعم به عليك، قال: النعم كثير، فإلى أيهم تشير؟ فقال: لتأليف القلوب إليك، فقال: حشرت مع فرعون وهامان إن خطر في سري أن لى فضيلة على أحد منهم، ويضرب به المثل في تحمل الأذى.

إلى أن قال: وكانت حلقة مريديه ستة عشر ألفا، وكان يمد لهم السماط صباحًا ومساءً.

وذكر كثيرا من كراماته، فقال: ومنها أنه كان إذا صعد للكرسي سمع حديثه البعيد كالقريب، حتى إن أهل القرى الذين حول بلده يسمعونه كالذين يجلسون بزاويته، وكان الأصم إذا حضره سمع كلامه فقط.

---

(١) المراد بالقوم هم الصوفية.

ومن كراماته أنه لما حج وقف تجاه الحجرة الشريفة النبوية وأخذ الوجد والشوق فقال:

في حالة البعد روحي كنت أرسلها تقبل الأرض عني فهـــي نائبتي

وهذه دولة الأشباح قد حضـــرت فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي

فخرجت إليه اليد الشريفة من القبر حتى قبّلها والناس ينظرون، وكانوا عدة آلاف وأخبر بوقت موته، وصفته، فكان كما قال.

وقد ألف أبو الحسن علي بن جمال الدين، أبي محمد الخطيب الكبير الحداد الشافعى كتابا في تاريخ القطب الرفاعي رحمه الله. أودع فيه أخباره، وآثاره، وأقواله. وكثيرا من أحواله، وآدابه وأخلاقه، وعباداته، وسماه **(ربيع العاشقين في مناقب سيدنا الإمام الرفاعي سلطان العارفين)**.

وقد أثنى عليه شيخ الإسلام العلامة أحمد بن جلال السلاوي الحنفي طاب ثراه فذكر نسب الإمام الرفاعي، وسلسلته إلى الجد الأعظم صلوات الله عليه وقال فيه سفرا:

وأرى السيادة لا يكون تمامها لنجيب قوم ليس بابن نجيبِ

نسب يورث كابرًا عن كابــــر كالرمح أنبوبا على أنبــوبِ

وألف فيه الإمام العلامة عز الدين الفاروني رحمه الله كتابا سماه **(النفحة المسكية)** وقال بعد أن ذكر تاريخ الإمام الأعظم القطب الرفاعي:

متى ما قيل نجم الصبح حتى تعيَّـــن أن مركزه السماءُ

وقال فيه الإمام الجامعي في كتابه **(النفحات)** الشيء الكثير والثناء المستباط. وذكره صاحب كتاب **(المَشْرَع الرَّوِي)** فقال: ومنهم شيخ الإسلام والمسلمين وموئل الأولياء الوارثين، والكمل المجتهدين شهاب الدين أحمد بن أبى الحسن الرفاعي الحسينى.

وذكره الإمام (المرجاني) في تاريخه بعد أن أطنب في ذكره فقال: هو من أولاد موسى بن جعفر الصادق.

وذكره أيضا شيخ الإسلام الإمام عبد الله اليافعى في كتابه **(خلاصة المفاخر)** وترجم له ابن خلكان، والحافظ الذهبي، والإمام العلامة العيني، والعلامة ابن ناصر الحنبلي في تاريخه.

وقال الإمام الزبيدي في نسبه: السيد الكبير أبو العباس أحمد بن على بن يحيي بن ثابت بن حازم بن أحمد بن على بن رفاعة الرفاعي نسبه إلى جده رفاعة المغربي الحسيني، وهو ابن أخت السيد منصور البطائحي الملقب بالباز الاشهب رضي الله تعالى عنهم أجمعين ونفعنا بهم، وهو أحد الأقطاب الأربعة المشهورين.

وصرح الشريف المرتضى ﷺ في **(تاج العروس شرح كتاب القاموس)** بأن نسبة الإمام الرفاعي إلى جده لأمام أبي عبد الله الحسين بن الإمام علي كرم الله وجهه.

وذكر تاريخه أيضا الإمام السيد العلامة ابن حماد في تاريخه **(روضة الأعيان)** وشأن الإمام مشهور، ومناقبه كثيرة لا تحصى، ولا تعد، مفاخره لا تستقصى، وكراماته كثيرة ومتداولة ومعروفة لدى الجميع.

ورحم الله الإمام سلطان المحدثين عز الدين الفاروني قدس الله سره فإنه قال:

أنت السموات السبع شِنْشِنَةٌ   آيات فضلك كلهـــا عجب

مناقب كالبدر طالعــــــة   هذا تـــولى وذاك مقترب

وقد بلغ عدد أتباعه وخلفائه، وخلفاء خلفائه في حياته مائة وثمانين ألفا كلهم من العارفين ولا كبر، فهو شيخ أكابر أهل الله، وزعيم عظائمهم، وقطب أقطابهم.

وترحم له السيد العلامة ابن حجر العسقلانى.

وقالوا: إنه شيخ أكابر أهل الله تعالى قاطبة. وزعيم زعمائهم، وعظيم عظمائهم، فهذا القطب العلوي السيد أحمد البدوي ﷺ من أتباعه، نص على ذلك الإمام ابن حجر العسقلاني، والإمام الشعراني.

وهذا الإمام الجليل أبو الحسن الشاذلي ﷺ فهو أيضا ممن تعلق به ولبس بعض وسائل خرقته الطاهرة.

وهذا القطب سعد الدين الجباوي ينتهي إليه من طريق أبيه.

وكذلك السيد إبراهيم الدسوقى ﷺ ينتهى إليه من طريق أبيه، كما ذكره الإمام الشهاوي في كتابه (**الخرقة**) وقد أشار إلى ذلك شيخ الإسلام السيد سراج الدين الرفاعي المخزومي بقوله:

إمام الورى الغوث الرفاعي سيدٌ ... جلالته شمس النهار ولن تخفى

ولادته بشرى ولله عمره ... وجاءته بشرى الله بالقرب والزلفى

وكتاب (**النجم الساعي**) كتاب جليل القدر، عظيم النفع قد جمع بين أسرار الشريعة والحقيقة، وذكر ترجمة القطب ونسبه وكثيرا من كراماته وأحواله وأقواله، نفعنا الله تعالى به ونفع به المسلمين آمين.

المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

قال الشيخ الإمام خلاصة الأشراف الأعلام ولى الله العارف بالله، الشيخ الشريف فخر الدين أبو بكر نزيل عدن ومفخرة أهل اليمن ابن الولى الكبير شمس الشموس السيد الشريف عبد الله العلوي الحسيني رضى الله عنهما:

الحمد لله الواجب الوجود، ومبدع كل موجود، استغنى بذاته عن الوزير فى الظاهر، وعن المدير في الباطن، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، رحمن نور عيون العشاق وقلوبهم بنور: ﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ ﴾ (الروم:٥٠).

رحيم أروى قلوب العارفين بشراب: ﴿وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا ﴾ (الدهر:٢١). رؤوف عطَّر مشامَّ أفئدة الطالبين بتنسيم رائحة: ﴿وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ﴾ (الرحمن:٣٧). سميع أسمع العاشقين لسماعه باستماع. ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ ﴾ (الأعراف:٢٠٤). صانع علق تسعة أسطحة الملك على بسيط الغبراء، وزين التسعة العلوية بتيقظات دوائر مناطق البروج السماوية وأحفظهما الأربعة الأمهات السفلية، والثلاثة الأولاد المجعولات بالسوية في انغماد الكون، وأنتج منها أنواع خير وشر ونفع وضر، في أدوار الأكوان، ففهم الفاهمين، ودرك أصحاب الدرك، قاصر عن كنه ماهية ذات كماله، وبقي شيخ

العقل في مكتب عرفانه على درس الجد وسالك السلوك، وسباح فيوض عالم الحقيقة في طريق كليته عاجزا يقرأ، ما عرفناك حق معرفتك، ما عرف قدره إلا هو ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ (الأنعام:٩١).

وفضل الإنسان على جميع الأشياء بزينة النطق، وجعله خبيرا بمزية العقل، وأكرمه بكرامة ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ (الإسراء:٧٠). وخص شرفه بشرف ﴿ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (الإسراء:٧٠). وخلعه بخلعة ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ (المائدة:٥٤). وخلقه مفتخرا بتحسين ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (التين:٤).

واختار محمدًا عليه الصلاة والسلام من جملة أنواع الإنسان شمس العصمة. وسلطان المملكة ومنطقة دائرة النبوة، سيد المرسلين ورحمة العالمين منبع العلم والوفاء، واتخذه خليلا واصطفاه دليلا لمودته بحكم ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (الأحزاب:٤٠). فهو السيد الذي في الظاهر آخر الأنبياء، وفي الحقيقة أولها. الأول والآخر: بدليل: (**كنت نبيا وآدم بين الماء والطين**) [١] الكبير الذي انقطع وانهدم من حسن لطافة عظمته أساس الكفر والضلال. خلاصة الكونين ومقتفى أصحاب ذوى النهى، عديم المثال، المخاطب بإجلال (لولاك ما خلقت الأفلاك).

---

(١) الحديث رواه القاضي عياض في شرح الشفاء.

وهو ورد بستان الحقيقة التي أظهرت الموجودات من أجزاء جواهر لطيفة، وعناصر شريفة للكامل الذي تنتعش جميع الأرواح من قطرة من بحر أنواره. فعليه ألوف صلوات لا عدد لها، وصنوف تحيات لا حد لها وعلى آله وأولاده وأزواجه رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

شعار القطب الكبير الرفاعي: الفقر إلى الله

روي عن رواة الأخبار وناقلى الآثار بهذا الوجه الذي بينه ثقة عن ثقة من أهل الحقيقة: أن طير الفقر طار من عش القدرة قبل البروز إلى أن وصل إلى العرش العظيم، فرأى عظمة العرش في ذلك الحين. فخاطبه العرش قائلا: (يا فقر اسكن في هذا المحل، وألعب مع صديقك لعب العشق. فقال له طير الفقر يا عرش أنا سمعت في حقك نعتا صحيحا ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ (طه:٥). وأنت سكنت ورضيت بهذا، فأنا ما أناسب صحبتك. فطار من ذلك المحل إلى الكرسي فقال له الكرسي: (يا طير الفقر اسكن في فرقي وأجعلني شريفا بسبب توطنتك لي) فقال له الفقر: (يا كرسي، أنا سمعت في حقك آيـة ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ (البقرة:٢٥٥). وأنت بقيت في وسعتك ولا أرى فيك مكانا يناسبني، فطار من ذلك المكان إلى أن وصل إلى اللوح والقلم. فقالا له: يا طير أجعلنا شريفين ومفتخرين بقدومك، فقال لهما الطير: أما نزل فيكما ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (القلم:١). و ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ (البروج:٢٢). وأنتما مرتبطانِ في مرتبة الاحتساب والمباهاة، ومرتبتى غير هذا المنزل فطار

حتي وصل إلى الجنة. فقالت: شرفني بقدومك، وتصاحب فيَّ مع الحور العين، فقال لها الطير: أنت ميسرة بحورك وولدانك وسلسبيلك ونعيمك. وكل ذلك لذة وحظ، نفسي وأنا تجاوزت حظ النفس، فطار الفقر حتى وصل إلى السماء فقالت السماء: يا طير بحضورك أجعلني مشرفة فقال الطير: نزل في حقك ﴿ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ ﴾ (الأنبياء:١٠٤). وأنت ليل نهار، في دورانك مالك قرار، ماأسكن فيك. فطار إلى أن نزل إلى الأرض فقالت يا طير الفقر، أرجو منك أن تسكن فيَّ، لأني منزل الأنبياء والأولياء. فقال الفقر، قد قرئ في حقك: أنت سفل وأنا علوي والأولاد الذين تبنينهم تأكلينهم، وأنا لا أسكن في هذا المحل. فطار الفقر إلى آدم. فقال آدم عليه السلام: أنت ضيفي. واعلم يا فقر أن الله تعالى قال لي: يا آدم جعلتك خليفة في الأرض، إن سكنت عندي شرفتني بجمالك. فقال الفقر: يا آدم إنك مقيد بخلعة الكرامة، وأمرت ألا تقرب هذه الشجرة، وعلمت بتعليم ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ ﴾ (البقرة:٣١). وأنت مقيد بالحكومة، وأنا ما أناسبك. فطار الفقر إلى روح نوح النجي فقال له نوح: يا فقر اجلس عندي ساعة لأني نجوت من الطوفان، فقال له الفقر: أنت ما أمسكت الفقر وطلبت هلاكه من الحق فقلت: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ (نوح:٢٦). فطار إلى أن وصل إلى روح إبراهيم الخليل، فقال له إبراهيم: يا طير شرفني بقدومك لأني قربت مالي وولدي في طريق الحق، وبنيت بيت الله، وأطفات نار النمرود. فقال الفقر: يا خليلي، إني ذهبت إلى ربي. وأنت قلت: هذا ربي، صدر منك نكت متعددة، أنا ما أصاحبك. وطار الفقر إلى أن وصل

إلى كليم الله موسى. فقال له موسى، يا طير شرفنى بلقائك لأنى سمعت كلام الحق، وأنا صاحب اليد البيضاء. فقال له الفقر، أنت قلت: ﴿ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ ﴾ (الأعراف:١٤٣). وسمعت خطاب: لن ترانى. وأنا لا أصاحب من له الطلب. فطار الفقر إلى أن وصل إلى داود، فقال له داود،: شرفنى بوصالك يا فقر. فقال له قد نزل في حقك ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ ﴾ (ص:٢٦). وأنت مشغول بصنعتك، وأنا لا أقدر على هذه الصحبة، فطار الفقر إلى أن وصل إلى سليمان أمين الله فقال له سليمان: يا طير اجلس عندي فقال الطير: يا سليمان أنت مفتخر بعلم ﴿ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ ﴾ (النمل:١٦). وجرت لك قصة مع بيت العنكبوت. أنا ما أصاحبك. فطار الفقر إلي أن وصل إلى عيسى بن مريم ﷺ، فقال له عيسى: يا طير الفقر اسكن عندي، فقال له: شفاء الأبرص والأكمه مانع لك. وأنا ما لي حاجة بالمقيدين.

فطار الفقر بهذا الوجه إلى أن وصل إلى سلطان الملك: وصاحب ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٧). أعني: سيد الأنبياء وقدوة الأصفياء، محمد المصطفى فلما رأى الفقر قام لاستقباله على قدم التواضع وقال: السلام عليك يا كيمياء الوجود والشهود. أنا أدعوك إلى نزولك عندي. إن رأيت لك محلاً مناسبًا فانزل فيه، لا يوجد في قلبي غير محبة الحق، وما لي تعلق بالغير. فلما سمع الفقر هذا المنطق الشريف فرآى رأسا خاليًا من الكبر، ودماغا خاليًا من الحماقة، وقلبًا ممتلئًا من الشوق، وروحا ملآنة من الذوق،

وفؤادًا مملوءًا من العمل، وصدراص خالياً من الوسواس، ولسانا بريئًا من الكذب، وأذنا مستحقة الكلام الرباني، ومسامًا مُعطرة برياض المعرفة، نور على نور الله من الله.

فلما رأى الطير عشه معمورًا نزل في قلب مطهر واتخذه مسكنًا. وقال من ذلك اليوم من قال على لسان النبي المفضال: (الفقر فخري وبه أفتخر) [١].

---

(١) هذا من كلام الصوفية. واعلم أن الفقر فقران، **فقر حسى**: وهو من لا مال معه، وهو مذموم إن صَحِبَهُ تعلق العقل بالمال، ويقال له الفقر القلبى، وهو المراد بما جاء في الحديث: (كاد الفقر أن يكون كفرًا) وهو الذي كان يستعيذ من النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: (اللهم إنى أعوذ بك من الكفر والفقر) ومن ثم قال رسول الله: (ليس الغنى بكثرة العرض وإنما الغنى غنى النفس). **وفقر معنوي**: وهو المراد عند الإطلاق على لسان القوم، وهو من خرج من كل شيء حتى عن نفسه، والفقر الحقيقى يتحقق بفقدان الميل والرغبة في الغنى والثروة، أى ينبغي أن يكون قلب الصوفي خاليًا، ويده خالية كذلك، وأصبح مفهوم الفقير: ينبغي أن يكون بعيدا عن كل ميل، ورغبة تسبب انحرافه عن الله تعالى، والصوفي الصادق هو من خلع نعلي الكونين من قدميه، أى قطع علاقة قلبه بالدنيا والآخرة أيضا، وهذا معنى الفقير الحقيقي، ومثل هذا الفقير يكون قد تخلى عن وجوده بحيث لا ينسب لنفسه أى عمل أو صفة، أو إحساس، فالفقير بهذا المعنى من الممكن أن يكون ثريا، أو أن يكون له منزلة وشأن في الظاهر، ويعد فى نفس الوقت من أفقر الفقراء، ولقد كان بعض الصحابة يمتلكون ثروات طائلة.

وبعد انتقال هذا الوجود الشريف من عالم البروز انتقل الطير بطريق الأثر إلى أمير المؤمنين وإمام المتقين حضرة أسد الله الغالب علي بن أبى طالب وبعد هذا رجع على هذا الوجه وهو يتقلب في الأرواح المقدسة، والأشباح المطهرة، إلى أن وصل إلى ذات شريفة وذروة باذخة منيفة، مرشد السر والضمير، وتابع جده البدر المنير قطب الذرات، سيدي أحمد الرفاعي الكبير.

ومن المعلوم البيّن أن لا شيء أعلا من الفقر، فإن سلطان الكونين، والجالس في مقام العزة بمجلس قاب قوسين افتخر بالفقر، وحينئذ صار من اللازم استقرار طير في ذات سيدي أحمد الرفاعي لما فيه من القابلية، فاستقر به بإشارة مولانا الإمام علي بن أبي طالب ﷺ فلزم على كل أحد أن يعظم ويكرم ذات هذا السيد العظيم، ويجل طريقه. وأهل بيته وفقراءه، ومريديه ومحبيه، ولذلك خدمت جنابه الرفيع ومقامه المنيع بهذا الكتاب المبارك، وسميته **(النجم الساعي في مناقب القطب الكبير الرفاعي)**.

فضل الطريقة الرفاعية

لما تحلى سيدي احمد الرفاعي بحلية الفقر، وتزيًّا بزيه، واجتهد في القيام بحقه وواجبه، أظهر الاهتمام في أنواع آدابه، وشدة منطقة الانقياد إلى الله على بصيرة، ووقع بأقلام الخدمة على صحائف سطور الهمة خطوط الإقبال وأبدع

نشأة الاجتناب عن نواهي الأحوال، قال سبحانه وتعالى له بلسان عنايته: يا أحمد قد رفعت درجتك في الدنيا والآخرة.

وحيث كان طير الفقر ما وصل إلى سيدي أحمد الرفاعي إلا من طريق الإمام على ﷺ وكرم الله وجهه تعين على كل أحد أراد أن يلبس لباس الفقر، ويتحلى بحليته أن يتخذ له مرشدا بصيرا، وعارفًا محققًا بصيرًا، ليكون له واقيا من المحظورات، ومبعدًا عن أسباب الهلكات، ومخلصا من ربقة الهواتف، ومنجيا من مهاول المخاوف وأن يكون له زادا موصلا إلى طريـــــــق: **(لولا المربي ما عرفت ربي).**

ولما كان الشيخ أحمد الرفاعي قد اتبع خير الخلق، واقتدى بأحسن السلف، صار معدودا من أجلة الفقراء الأكابر، والواسطة لعقد جواهرهم التي انتظموا فيها من كابر عن كابر، وحامل جملة أفكارهم ومواقع أنظارهم كما يشير إلى ذلك مكتتب هذه العجالة من علامات الطلاب، وإشارات كرام الأنساب، فعلى التحقيق مريدوه فائزون بثمرة المحبة، ومكرمون بأدب السلوك، ولا يكون بأحدهم يوم المحشر من يلبس ثوب الخجل والندامة.

نقل عن شيخنا السيد أحمد الزاهد أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم ورأى عنده روحًا منورة سكرانة بالمشاهدة، داخلة بالسماع في الحال، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عنها. فقال: يا أحمد هذه روح السيد أحمد الرفاعي الكبير. فقال من السيد أحمد الرفاعي؟ فقال ﷺ: يا أحمد هو رجل سيكون من

أولادي، ونسبه هاشمي، ثم أنجلت الروح عن الهيكل الآدمي الأحمدي فدعا له صلى الله عليه وسلم وقال: زاد الله رفعتك.

ومعلوم أن سيدي أحمد كان نسبه هاشميا، وكان اسم أبيه عليا، ولقبه أبا الحسن. ووالدته كانت أخت الشيخ منصور الرباني، وكان الشيخ منصور الربانى هذا شيخ البطائح، وكان ولي عصره، ووحيد دهره، وكان أكبر مشايخ أهل العصر.

غرائب حمله وولادته

نقل أنه لما وقع سيدي أحمد ﷺ نطفة في رحم أمه كان وقت الوقوع وقتًا شريفًا مباركًا. وفي ذلك الوقت سلم على أمه سلام الداخل إلى منزل أهله. فتخوفت أمه، وسألته عن شأنه واسمه. فقال لها بلسان روحاني تفهمه: أنا أسمي أحمد الرفاعي، ولا تخشَي مني فأنا ميمون على المؤمنين، وشؤم على الكاذبين والشياطين.

ونقل أنه ذات يوم من الأيام وكانت أمه رضي الله عنها حاملة به فعطست وحمدت الله تعالى، فرد عليها بقوله: يرحمك الله وهو في بطنها ﷺ فلما سمعت أمه ذلك التشميت تعجبت منه وقالت: أى هاتف جاء بهذا التشميت، وتأملت فعلمت أنه ممن سكن بطنها فقالت له: من أنت؟ فأجابها من بطنها بلسان تفهمه: أنا أحمد الرفاعي.

ونقل عنه ﷺ أنه لما كانت أمه حاملة به قال لها بلسان الروح، يا أمي اطلبي من الله ما شيءت. فقالت: أطلب من الله أن يجعلك من الفائزين، فقال لها: اطلبى من الله سبعة أشياء:

الأول: أن تعتقدى اسم الله باليقين.

الثانى: أن تكوني مواظبة على الصلوات الخمس.

الثالث: أن تجتهدى في تحصيل مقام الإحسان.

الرابع: ألا تتوجه نيتك على السوء.

الخامس: أن تحفظي لسانك من الغيبة والنميمة.

السادس: أن تكوني فى حذر من الله تعالى بلا غفلة.

السابع: أن تتقيدى بحالك خشية الشيطان أن يلقى إليك طريقا يسلك منها إليك؛ فإن عمل الشيطان مبني على الكبر، والمتكبر يخجل عند الحق سبحانه وتعالى إذا وقف بين يديه.

فلما سمعت أمه كلامه تعجبت منه وقالت: كيف يكون هذا المولود يتكلم في بطني كأنه عيسى بن مريم. ولذلك أشار الشريف بهاء الدين محمد الحسيني ابن أحمد الشهاب الحضرمي بقوله:

بعيسى نبي الإسلام في محفل السعد   **يفوق على باقي البريـــــة بالمجـــد**

هو السيد القطب الرفاعي إمامنـــــا فتى الأولياء غوث الجميع على المـدّ

إمام رجال الله في كل وجهـــــــةٍ وسلطانهم في الشرق والغرب والهند

هو الفتح في ميدان كل محفـــــــل كتكبيرة الإحرام في مبدأ الحمـــــــد

هو الغوث الهطـول علــى الـورى هو الفائق الأقطــاب بالجـد والزهـد

هو التارك الدنيا هو المعرض الـذي علـــى الله بـــالإقرار أقبـــل والجهـد

هو السيد المنسوب من خيـر فرقـة لصاحب بلـــوى كـــربلا راح بـــالورد

هو الليـث والـسيد تخـشاه هيبـة وتطلبه السادات بـــالقرب فـــي البعـد

بنى البيت والمختــار والآل ســادتى أناديكم في الكرب إن ضاق بي جهدي

هم الأربع الأقطاب لا فــرق بيــنهم بمنزلة فـــي وحـــدة الحـــال والجـد

إلى السيد القطب الرفــاعي إمامنــا وشيخ الحمى الجيلي من قام بالرشـد

وحامي حمى أقصى العريش بطنتــدا هو السيد البدوي شيخ أولـــي المجـد

وبعدهم المولى الدسوقي حمى الورى ومصدر فيض الله من جانـــب الفـرد

وفى سيرنا الساعي يغنـــى بـــشيخه ويطلبـــه الرشـــد دهـــرًا وللمـــد

فإياك والإفـراط فـي حـب مرشـد وتفضيل بعض القوم تلوي عن المجد
وتطرد عن أبواب سـاحات عـزهم لأن قليـل العقـل منهـاه للطـرد
وجَمِّـلْ سـلوك السير لله بـالتقى لعلك بالشرع الشريف تكـن مهـدي
وإن كنت مثلـي للرفـاعي تنتمـي مع الشرع لا تخشى بحقٍّ من الأُسْـد
ففـي بابـه الآسـاد تـأتي ذليلـةً وتخـدم كالمـأذون بالـشد والعهـد
كفى شرفا أني إلى الغـوث ينتمـي طريقي كفى عزا كفى هيبـةً عنـدي

ونقل عنه ﷺ أن أخا أمه وهو الشيخ منصور الرباني دخل على أمه يوما وهى حاملة به وقال لها: يا أختى لكِ البشارة بهذا المولود الذي أنت حاملة به فإنه يكون له مرتبة عظيمة أعلى من مراتب المشايخ، ويكون العالم كله منورا بقدومه، ويكون قوم من الناس منكرين له، وقوم معتقدين فيه، ولكن دولته تزيد، ويكون المنكرون معترفين به معتقدين له.

ونقل أنه فى وقت أن وضعته أمه جاء مبشر إلى سيدي الشيخ منصور الربانى، وقال له: لقد ولدت أختك ولدًا وكان البيت مظلما فصار البيت منيرًا من جماله. فجاء سيدي منصور ﷺ من وقته ودخل البيت فرآه كما ذكر المبشر، ورأى مولودا يضع يده اليمنى على صدره واليسرى على عورته فرفعوها فأعادها إلى المحل الذي كانت موضوعة عليه وفعلوا ذلك مرارا، فقال

لهم: خلوا ولي الله في حاله. وقيل لسيدي منصور يوما: إن ابن أختك يحرك شفتيه دائما. فرأى الأمر كذلك فوضع أذنه على فمه فسمعه يقول: سبحان من صوركم فأحسن صوركم. فقال سيدي منصور: الحمد لله الذي جعل الفقر جوهرًا ظاهرًا في أهل هذا الفقير.

ونقل أنه حين شرعت أمه فى إرضاعه أعطته ثديها الأيمن، فقبله وأبى أن يشرب منه، وكان له مرضعة صالحة عفيفة النفس فأعطته يوما ثديها فما قبله وأعرض عنه، فنظروا في الأمر وفحصوا فوجدوا هذه المرضعة بلا وضوء فلما توضأت شرب من لبنها ﷺ ، ما أحسنه كهلاً وشيخًا وطفلاً! (١).

طفولته وتعليمه

ونقل عن الكرخي قال: سمعت سيدي أحمد الزنكي يقول: من حين كان سيدي أحمد الرفاعي طفلا ما كان يجلس عند أحد من الناس سوى أبي الليث الحراني، وكان أبو الليث هذا معروفا بالصلاح والتقوى بين الناس وكان والده أمير حران، فترك طريق الإمارة التى كانت شأن والده وتبع طريق الفقر ورضى بها و ﷺ.

---

(١) هكذا شأن الأولياء يكونون في رعاية الله وعنايته من الصغر لم يقبل أن يشرب اللبن من ثديها وهي على غير وضوء. وذلك لأن الطهور شطر الإيمان.

ونقل أنه عين للسيد العظيم سيدي أحمد الرفاعي معلم يعلم القرآن والنحو والصرف. فلما أمره ذلك الأستاذ المعين أن يقرأ شرع فى القرآن ثم النحو. فقال الأستاذ: ضرب زيد عمرا. فقال: يا أستاذ لأي شيء ضرب زيد عمرا فقال له المعلم: يا ولدى هو ما ضربه حقيقة.

ولكن هذا اصطلاح العربية. فقال سيدي أحمد ﷺ : إيش بى أتعلم ما فيه الكذب؟ لا حاجة لى بذلك ولا أقرؤه. وخرج من المكتب وجاء إلى خدمة العلامة الشيخ على القارى، ولازمه في الطريق، وأخذ منه العهد الوثيق وانكشفت له بإذن الله علوم الحقائق والدقائق، وعلوم الظاهر والباطن. والعلم اللدنى بواسطة ذلك المعلم، ثم تلا ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (طه:١١٤). وأخذ عن خاله سلطان العلماء الشيخ أبي بكر الأنصاري علوم الشريعة وتفنن بها، وألف الكتب الكثيرة منها **(حالة أهل الحقيقة مع الله)**، وكتاب **(البرهان المؤيد)**، جمعه عنه وتلقاه منه الشيخ شرف الدين أبو طالب بن الشيخ عبد السميع الهاشمى العباسى الواسطي وغيرها، من الحكم الفائضة والأسرار الغامضة، وكان مع ما كان عليه من الفضل العظيم ﷺ مسكينا متواضعًا حزينًا فوق الحد.

ونقل عنه ﷺ قال: رأيت جميع الطريق إلى الله تعالى، فما رأيت أحسن ذخيرة وأقرب إلى الله تعالى من طريق الذل والانكسار والمسكنة.

ونقل أنه كان لسيدي منصور الرباني خال سيدي أحمد رضي الله عنه ولدان، وكان تقيد سيدي منصور بدأ بسيدي أحمد ولد أخته أكثر من تقيده بولديه، وكان سيدي منصور بدا فى زمانه شيخ البطائح كما تقدمت الإشارة إليه، بل شيخ شيوخ جميع أهل عصره، وكان مراد الشيخ منصور أن يجعل سيدي أحمد قائما مقامه فى السجادة، فيكون شيخ الشيوخ أيضًا، كما هو الآن شيخ الشيوخ، فقال له أولاده وبعض محبيه: إن ميراث الأب لا يكون إلا للابن، ولا يكون لابن الأخت فقال لهم الشيخ: إنى رأيت منه شيئًا اقتضى ذلك، وإن شيءت أريته لكم، فقالوا له: أره لنا فجمع الشيخ منصور أولاده وأحبابه، وأحضر سيدي أحمد معهم، فأعطى الشيخ لكل واحد منهم سكينا ودجاجة وقال لهم كل منكم يذهب بدجاجته وسكينه إلى محل خال، ما فيه أحد يذبح دجاجته فيه ويأتى بها مذبوحة، فراح كل واحد إلى جبل بعيد وذبح دجاجته، وجاء بها مذبوحة إلا سيدي أحمد فجاء بها حيةً فلما رآه الشيخ ودجاجته غير مذبوحة سأله عن ذلك وقال: لأي شيء جئت بها بلا ذبح؟. فقال ﷺ : أقد شرطتم على خلو المكان، وقلتم اذبحها فى مكان خالٍ فكل موضع ذهبت إليه لا أجده خاليًا بل مشغول بالله سبحانه وتعالى [1]. وهو فيه حاضر ناظر. ولما لم أر مكانا خاليا قط لم أذبحها.

---

(١) وهكذا تكون المراقبة لله تعالى. لأن الله تعالى في كل مكان وزمان وهو معكم أينما كنتم.

ونقل عن الشيخ ﷺ أنه مرة أخرى أعطى لسيدنا أحمد ﷺ ولأولاده مناجل من حديد وزنابيل. وقال لهم: إذهبوا هاتوا من الغيط نجيلا، فراح كل منهم وحصد حملا وجاء به، إلا سيدي أحمد الرفاعي جاء خاليا، فقال: يا سيدي سببه أنى كلما أمسك النجيل أجده يذكر الله تعالى[١] فما حصدته، فسبحان من يسبح له من في السماوات ومن في الأرض فظهر للكل أن عناية الحق مع سيدي الكبير ﷺ.

ومن أجل هذا وجه كل واحد وجهته إلى العبودية وإلى محبته، وأظهر الخدمة والملازمة في فناء عتبته، وشاع اسمه ورسمه فى آفاق الدنيا، وكان كل من رآه كان يعتقد فيه بالقلب، والذي ما نظره وسمع به كان يشتاق لرؤيته اشتياقه إلى الكعبة، وفى مدة قليلة شاع شرف أخباره فى العالم، وفشت أسرار معارفه بين أولاد آدم وسار إليه من البلاد والأقطار خلق كثير، ولزموا خدمة أعتابه. وصاروا من جملة عبيده وأحبابه، وصار اسم سيدي أحمد فى مرتبته أظهر من كل شيخ كان له سجادة في ذلك العصر حتى من الشيخ منصور البطائحى خاله، وأكابر أهل المعرفة والطرق ساروا إليه وأخذوا عنه العهد،

---

(١) قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء:٤٤]. وقد قيل فى الأثر: (ما صيد طير فى الهواء، ولا صيد سمك في الماء، ولا قطع ورق من شجر إلا إذا أغفل عن ذكر الله عز وجل).

وحفظوا منه بنظرة السعد، فمدته السعادة بإمداداتها ولحقته السيادة ببركتها. كل ذلك بحلول نظر ذلك العارف عليهم.

غرائبه مع تلاميذه

وكان من جملة من أخذ العهد على سيدي أحمد الرفاعي ﷺ شيخ عارف كبير في عصره، يقال له سيدي مجرد الأكبر فلما أن جاء إلى خدمة الشيخ وأراد أن يأخذ عليه العهد وبايعه، قال له سيدي أحمد ﷺ تواضعا منه وانكسارا: يا مولانا أنت أحق بأن تكون المأخوذ منك العهد والمبايعة فلك اعتبار، وفى مدة عمرك ما أكلت لذيذا بخلافي أنا فإني أكلت اللذيذ، فقد نقل عن طرق الثقات أن سيدي مجرد الكبير هذا ما كان طعامه إلا البلوط [1] ثم لما ظهر في البلوط البيع والشراء ترك الأكل منه، وشرع فى أكل ما لا شبهة فيه ولا لذة. وكان عارفا بالله مراقبًا متقيًا، وتقواه فوق الحد فرضي الله تعالى عنه وعن سائر أوليائه أجمعين.

وقيل له: سيدي أحمد أنت أحق بالمبايعة فإنك ما لبست أثواب النعيم عمرك. وما تأملت وأنا متأمل وأنت ما وقع نظرك على حرام، وأنت دائم فى

(١) قال في المصباح: البلوط مثل تنور، ثمر شجر، وقد يؤكل وربما دبغ بقشره. وهذا من كثرة الزهد والورع وهو ترك أكل الحلال.

الخلوة والعزلة، وكان أحب ما علي أن أكون لك مريدًا وأنت لي سيدًا ولكن أنت صاحب الحلم والملاطفة، ومن أجل ذلك بايعتني فرضي الله تعالى عنه.

وقيل: إن فقيرًا من فقراء سيدي أحمد الرفاعي قصد الحج إلى بيت الله الحرام في سنة من السنين، فبينما هو سائر مع ركب الحجيج في بعض الايام وإذا بالبرد قد اشتد عليه حتى كاد أن يهلك به، فنادى الفقير بأعلى صوته مستغيثًا وقال: يا سيدي أحمد أدركني فإن البرد أهلكني.

في ذلك الوقت وكان إذ ذاك سيدي أحمد ﷺ نائما في الخلوة، وعنده سيدي مجرد الأكبر، فسمع ذلك الصوت سيدي مجرد الأكبر، وكان له شملة على رأسه. فأخرج رأسه من الخلوة ورمى بالشملة إلى الهواء الذي في جهة الجانب الذي فيه الفقير، فأخذها الهواء وحملها واستمر إلى أن وصل إلى الفقير البردان، فرمى بها عليه، فأخذ بها ولفها على يديه فاندفع عنه البرد، والبرد عدو الدين، ثم إن الفقير لما عاد من الحج إلى بلده حكى وصول الشملة لسيده الشيخ أحمد الرفاعي، فتعجب سيدي أحمد الرفاعي وقال: يا ترى تلك الشملة لمن؟ ومن أرسلها لهذا الفقير، فعند ذلك قال سيدي مجرد الكبير: إن الشملة لي، وقد كنتم أنتم نائمين، فسمعت أنا صوت الفقير، فكان لي نصف شملة، فأرسلته

إليه مع الهواء، وهذا كله بنعاية همتكم يا مولانا، وسيدي مجرد تلميذ ومريد من مريدي سيدي أحمد الرفاعي. (١).

والثانى من مريديه سيدي عماد الدين ﷺ، وأصل القصة أن الشيخ عماد الدين هو من أهل زَنْج بفتح الزاى – قرية من أعمال واسط – وكان أحد حجَّاب الخليفة المستضيء بأمر الله العباسى، وكان سيدنا السيد أحمد يجمع بمجلسه الناس على الخير والطاعة، والذكر، وكان بعض علماء الظاهر يعترضون حسدًا على الشيخ السيد أحمد الرفاعي، فوشوا به إلى المستضيء بالله الخليفة، وقالوا: يا مولانا هذا المجلس يشتمل على مفاسد كثيرة، منها الجمع بين الرجال والنساء، ومنها أنواع الطرب والملاهي التي تحدث فى المجلس، فاغتاظ الخليفة لذلك وتشوش، فقال للخليفة بعض من كان حاضرا: يا مولانا الخليفة، من اللازم والواجب عليكم أن تفتشوا مثل هذا الحال، فإن كان له أصل تمنعوه وتخرجوا من حق الشيخ بحيث يكون عبرة عند الناس، ثم إن الخليفة فى ذلك الوقت حمّل حِمْلاً من الشراب العقار، وأرسله إلى عماد الدين هذا، وقال

---

(١) وهذه الكرامة ليست مستبعدة، فإن الله تعالى قادر على أن يامر ملكا يوصلها إلى مكان المريد البردان وأما سماعه لصوته وهو بمكة والثانى بالعراق فهى كرامة حصلت لسيدنا عمر بن الخطاب حيث نادى وهو على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة سارية قائد جيش المسلمين فى ميدان القتال وقال له: يا سارية الجبل فسمع نداءه.

له: أوصل هذا الحمل من الشراب إلى الشيخ، وقل: إن الخليفة قد سمع أن في مجلسكم مجتمع الإناث والذكور، وتزخرفون المَجلس بالطرب والآلآت. وقد أراد أن تتمموا المجلس بالشراب، وها هو قد أرسلته لكم.

ثم إن السيد الكبير نفعنا الله تعالى به قبل أن يصل إليه عماد الدين بما معه، أخبر مريديه الحاضرين عنده بالأمر كله من طريق الكشف، ونقل ما قاله الخليفة. وغيره من جلسائه فى حقه كله، وأخبرهم أن اسم القاصد، والقادم عليه عماد الدين. ثم إنه لما وصل الشراب إلى الشيخ، قال له الشيخ فى الوقت والحال: أنت يا عماد الدين قد جئت بالشراب، فكن أنت الساقي، فاملأ وناول القدح لي، فقام عماد الدين امتثالا لأمر الشيخ، وفتح فم القربة فوجده من الشراب العسل المصفى، فصاح صيحة عظيمة، وغاب عقله وقام رمى بنفسه على أقدام الشيخ وقال: أنا عبد مملوك لكم يا سيدي [١].

ثم إن سيدي أحمد الرفاعي فى الوقت أمر أن يأتوه بحِقَّة، فأتوه بها فأمرهم أن تملأ فملؤها، فوضع على الماء قطنًا، وعلى القطن نارًا، وغطى الحقة بغطائها، وسلمها لعماد الدين وقال: أوصل هذه الحقة إلى الخليفة، وقل له: بعناية الله تعالى وعناية معجزات رسول الله صلى الله عليه وسلم للشخص

---

(١) وهذه كرامة من كرامات السيد الرفاعي الظاهرة وهو أن الله قلب له الخمر عسلا مصفًى، وأخبره بما حصل من الحديث فى مجلس الخليفة، وقد حصل مثل هذه الكثير غيره من الأولياء.

الذي قد جمع بين هذه الأضداد، ومنع بعضها أن تعدو على بعض يقدر أن يحفظ الإناث من الذكور، والذكور من الإناث، ومع ذلك فإن طريقنا مبني القواعد على الكتاب، والسنة المحمدية، لا ينفك عنها مقدار ذرة.

فقل للعلماء: قال الله تعالى فى القرآن الكريم: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ (الحجرات:١٠). [١] فكل منهم والخليفة أيضًا غافل عن هذا ولو علم ما فعل فقال عماد الدين: أنا ما أفارق مجلسكم يا مولانا.

فقال له سيدي أحمد الرفاعي: توجه إلى الخليفة وأتمم خدمتك ثم عد لنا، فعند ذلك امتثل عماد الدين أمر الشيخ وتوجه بالحقة إلى الخليفة، إلى أن وصل إليه فدفعها له، وعرضها على سائر العلماء وأرباب الدولة الذين كانوا منكرين على الشيخ، ويعترضون عليه، فلما أن رأوا هذا البرهان تحيروا وتأسفوا وندموا على ما كان منهم من الامتحان الذي فعلوه. فعند ذلك لما وقفوا على حقيقة الحال اعتقدوا بركة الشيخ ﷺ، وتوجه جماعة منهم إلى جناب السيد الكبير، وساروا إلى أن وصلوا إلى أم عبيدة، وهو اسم مكان الشيخ الذي كان قاطنًا به فقابلوه فيه، وأنابوا له، واعتذروا وصاروا له محبين معتقدين.

---

(١) المراد به أن يشعروا بأخوة الإيمان التي بينهم وبينه ويصلون، ما أمر الله به أن يوصل من صلة الإيمان والمحبة والمودة التى أمر الله بها عباده المؤمنين.

ثم إن الشيخ أحمد الرفاعي في ذلك الوقت خاطب عماد الدين وقال له: يا زنجى أتمم المعروف، فحين نطق له الشيخ بهذا النطق بقي من ذلك اليوم معروفا فى الناس (بالزنجي) وأشار إليه الشيخ وأعطاه العهد. فترك الخليفة وطريقة الأمراء لتحصيل مقام الفقراء، وقد حصل بخدمة السيد الكبير مقاما جليلا حتي صار خليفة الخلفاء، وسيأتى لذلك بيان وتفصيل آخر، في نهاية الكتاب إن شاء الله تعالى.

والخليفة الثاني الشيخ مجرد الأكبر، والثالث من مريدي الشيخ وأصحابه المقربين، علي بن نعيم، والرابع الدرويش الرقيق وهو الشيخ يعقوب الكرازي. كان من البطائح، والبطائح من أطراف واسط فيما بين بغداد. والبصرة بالعراق وأم عبيدة، المكان الذي أشرنا إليه سابقا، والشيخ الكبير الآن مدفون به.

ونقل أنه كان من جملة عبيد سيدي أحمد الرفاعي ومحبيه، سيدي محمود الحبراني الرومي. وكان من قصته، أنه كان فى عصر الشيخ ﷺ أنه كان أميرًا كبيرًا، وحاكمًا جليلاً، ومتصوفًا مشهورًا فلما شاع ذكر الشيخ فى الآفاق، وسارت الركبان بمحامده ونشرت ألوية الثناء عليه من كل جانب، وسمع بذلك الخاص والعام، وكان من جملة من سمع طيب أثره سيدي محمود الحبراني هذا فعشقته أذنه على السماع، واشتد حبه للشيخ ﷺ، ووقعت محبته فى قلبه. وسبقت له العناية الربانية، فعزم على زيارته، والتوجه إليه، فترك الحكم والديار والعشيرة والإمارة والحكومات وما كان فيه من التحول في النعيم

والمباهاة. وسار إلى الشيخ ﷺ حافيًا ماشيًا مكشوف الرأس إلى أن وصل إلى سدته، فبايعه وأخذ عليه العهد، ولزم خدمة أعتابه اثنتي عشرة سنة وهو واقف كالسكران، وكان مستغرقا بالوجد والهيام والمحبة، وترك شعر رأسه حتى صار كالفتائل وهو لا يشعر بهذا الحال.

بل نقل عنه أنه ربما كان يقف الوقفة الواحدة بالموقف الواحد مدة طويلة مذهول العقل شارد اللب في حب المولى، وربما تأتى إليه الحية تلدغه وهو واقف فيقهر سم عرفانه سم جهالتها فتقع ميتة تحت رجليه، ولا يشعر بها، وقد ينبت القصب بين رجليه، مع كل ذلك وهومستغرق فى بحار المحبة الإلهية، من حسن اعتقاده ومحبته وإخلاص قلبه للدعوة المحمدية، وحب سيدنا السيد أحمد الرفاعي ﷺ [1].

وليس ذلك ببعيد على أهل الله تعالى الشاربين كئوس المحبة، ألا نرى إلى قصة أهل الكهف حيث ناموا فى كهفهم ثلاثمائة سنين ثم لما استيقظوا وأقاموا، سألوا عن مقدار مدة ما ناموا بقولهم: ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ (الكهف:١٩). لأن هذا الاستغراق والنوم من باب نومة الحيرة، وهو نوم مخصوص يمنحه الله تعالى لقوم اصطفاهم فجعلهم

---

(١) وهكذا الاستغراق فى المحبة، والتعلق بذات الله تعالى والتفكير في عظمته قد يسلب العبد لبه، ويفقده الشعور بما حوله، وقد يستمر أياما بدون طعام ولا شراب ولا منام.

دائما معه فى مقام المشاهدة، وغيبهم عن الخلق بمشاهدة الحق وسقاهم من شراب الوصال الذي ما كل أحد له منه منال ولا يناله إلا العاشقون، لقوة أرواحهم وثبات أجسادهم؛ فإن أرواحهم وقوتهم وأجسادهم وتنميتها من عالم آخر، ما يعرفه إلا أهله.

ويوضح هذا ما قاله العلماء في مسألة إدريس نبي الله. وعيسى ابن مريم. روح الله صلى الله على نبينا محمد وعليهما وسلم، إنهما فى السموات يرزقان ويتقوتان مع أهل الملكوت. وصار قوتها من باب القوة الملكية لا القوة البشرية بمفارقتهم ما للعالم السفلي. وانخلاعهما بالتحاقهما بالعالم العلوي. وهذا المعنى حري بمن أعطاه الله التوفيق السرمدي. وكلامنا فى أهل هذا المقام. فرضي الله عن أوليائه وصلواته النامية على أنبيائه.

ثم إن سيدي محمود الحيرانى لما انقضت مدة استغراقاته في المحبة جاء السيد الأكبر سيدي أحمد الرفاعي إليه وهو فى حال استغراقه وجذبه جذبة الخلوص منها. وقال: لا تتقيد بأحوال السلوك وادخل إلى خزينة الفقراء وخذ منها اللائق من الأسباب. فامتثل سيدي محمود أمر الشيخ ودخل الخزينة وأخذ مطلوبه. وأذن له الشيخ فى السفر فتوادع معه في أم عبيدة وسأله الدعاء وزيادة الإمداد وتوجه إلى الروم من حيث أتى.

فلما وصل البلاد وكان فى فصل الربيع ووصل في مدة قليلة فوافى محلا وهو سائر فرأى جماعة جالسين فى الخضرة بين رياض وغياض، يتحدثون

وكان منهم شخص يسمى (صاري صاليق) أمين ملك الروم. فلما أن وقع بصره على سيدي محمود الحيراني وهو مار بهم قام إليه من بين الجماعة واستقبله وصافحه وعمل معه التعظيم والتكريم. فلما كان منه ذلك فى حق سيدي محمود الحيراني ﷺ. قال له سيدي محمود: افتح فمك ففتحه فوضع يده عليه فصار صاري صاليق حيران سكران، لأن نَفَس سيدي محمود الحيراني نفس سيدي أحمد الرفاعي.

وصار فى بلاد الروم من أهل التسليك وبه يحصل الفتح للمريد كل ذلك من بركة السيد الكبير سيدي أحمد الرفاعي، وبقي سيدي محمود الحيراني فى بلاد الروم قاطنا مشتهرا، وصار صاليق بنواحي بلاد الإفرنج.

ومن زى الفقراء أنهم يلبسون التنورة وهى مئزر من جلد والهدّ، وهو إزار يفردونه على أكتافهم وغير ذلك. فكان سيدي محمود الحيراني يلبس مثلهم بعد ما كان لا يلبس إلا الثياب الفاخرة الثمينة الغالية ﷺ.

ونقل أن شخصًا يدعى (براق) كان من أكابر الروم فلما سمع بأخبار الشيخ الحسنة، أعني سيدي أحمد الرفاعي عزم على زيارته. وتوجه من الروم وسار إلى أن وصل إلى سيدي أحمد الكبير، فاندرج فى سلك خدمته اثنتي عشرة سنة خدمة خالصة بالقلب على حكم العبودية والمسكنة فعند ذلك نظر إليه الشيخ بعين الرحمة والعطف والحنان والشفقة، وأذن له فى التوجه إلى بلاده معمرا مسلكا فى غاية ما يكون وقال له: إذهب إلى خزانة الفقراء أى شيء

أعجبك ولاق بحالك خذه منها، فامتثل أمر الشيخ فقبّل يديه ورجليه واستأذنه في السفر، فأجازه وأذن له فيه، وتوجه إلى بلاده وهوَ بالوجد والغرام.

ونقل أن من جملة من وفد على سيدي أحمد الرفاعي ﷺ للزيارة الشيخ أحمد اليسوي رحمة الله عليه، جاء إلى خدمة الشيخ ومعه من المريدين أربعمائة درويش. فلما وصل الشيخ أحمد اليسوي إلى أم عبيدة أمر فقراءه أن يضعوه في زنبيل، وإذا وقفوا عند السيد الكبير يضعونه بين يديه ففعلوا ما أمرهم به، فلما أن رأى سيدي أحمد الرفاعي ذلك الزنبيل وفرغوا من السلام عليه وتقبيل أياديه فتح السيد الكبير ﷺ رأس الزنبيل وتأمل فيه فوجده فيه كالخروف المشوى لكبر سنه. فقال سيدي أحمد الرفاعي حين رآه على هذه الحالة: يا أحمد اليسوى بارك الله فيك. إنك ما وصلت إلينا ترجو نظرنا إلا مستويا في غاية ما يكون. ثم إن الشيخ سيدي أحمد الرفاعي ﷺ قرأ في ذلك الوقت سورة ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ ﴾ (الإخلاص:١).

فقام سيدي أحمد اليسوي وخرج من الزنبيل سويًا شيخًا منظمًا مبجلاً مهابًا، ولكنه صار بين يدي السيد الكبير بالعبودية والمسكنة وأخذ عليه العهد. وألبسه سيدي أحمد الرفاعي خرقة الفقر وصار من بعض مريديه مخلصا في المحبة والخدمة: وجعله من جملة الخلفاء المؤمنين المعتبرين المشهورين. وأذنه الشيخ فى السفر. وعينه هو وتلامذته فى نواحى التركستان. فامتش أمر الشيخ وأخذ خاطره هو ومريديه وتوجهوا إلى الأماكن التي أشار إليها الشيخ.

فلما أن وصلوا إليها تعطرت بأنفاسهم بقاعهم. وازدانت بأنوارهم رياضها ورباعها رضي الله عنهم وعن جميع الأولياء والصالحين. ووصلت عدة تلامذة الشيخ أحمد اليسوي ومريديه نحو التسعين ألف مريد. وصار صاحب الوسم والرسم فى ذلك العصر بتلك الأقاليم. وصار من سعداء الدارين وكل ذلك ببركة سيدي أحمد الرفاعي ﷺ.

ونقل أن الشيخ أبا بدر العاقولي سار إلى خدمة سيدي أحمد الرفاعي في بعض دراويشه من أطراف بلاد واسط. يريد زيادة السيد الكبير واجتمع به وتقيد هو ومن كان معه من الدراويش بخدمة الشيخ ﷺ مدة طويلة. وأعطوا الخدمة حقها ونصحوا كل النصح فيها. فنظر سيديى أحمد الرفاعي إليهم بعين الرحمة والشفقة فوصل الشيخ أبا بدر العاقولي بتلك النظرة وهو ومن معه إلى مرتبة علية، بحيث أن صاروا متعينين مشهورين بالولاية والصلاح بين الخاص والعام وأمرهم بالسير إلى بلادهم فتوجهوا إليها وصاروا من أهل الإشارة والتسليك، وانتشرت بركتهم فى الآفاق، وفى أقطار الكون وجهاته.

ونقل أن رجلا عالما بعلم الشريعة من علماء البصرة قد سمع من العالم أنه قد ظهر شيخ فى أم عبيدة يقال له سيدي أحمد الرفاعي وله كرامات خارقة. ولكن مجلس ذكره يكون فيه الذكر العياط والشياط، أعنى الصياح والصراخ، وأنكر ذلك العالم على الشيخ السيد أحمد الرفاعي ﷺ، واستبعد أن يكون مثل ذلك فى مجلس سيدي أحمد الرفاعي، وتوجه من البصرة إليه، فلما أن وصل

إلى أم عبيدة وقف على مجلس الشيخ واجتمع به ﷺ وأخذ فى مشاهدة أحوال مجلس الشيخ فراعاه الشيخ مراعاة تامة ولاطفه ملاطفة شاملة عامة. وكان الشيخ سيدي أحمد الرفاعي ﷺ مع هذا التقييد فى غاية ما يكون من أفعال المحاسبة فرضي الله تعالى عنه مع علمه بأنه إنما جاء من بلاده لينتقد عليه.

فلما استغرق الفقراء فى الذكر وحصل لهم من الوجد ما حصل واعترت المجاذيب أحوال المحبة والمشاهدة، وكان منهم الصياح والصراخ. فى مجالس الذكر، فكان يقول: هذا لا يجوز شرعا وهذا حرام، وأكثر فى كلامه من هذا القبيل.

فعندما سمع منه هذا الكلام السيد الكبير قال له: يا رجل لا تعمل الجهالة عندنا أنت ما لك خبرة، ولا عندك معرفة بهذه الأحوال التى تعتري الفقراء فإنهم ما يفعلون البكاء والصياح إلا عن قلوب محروقة بأسنة المحبة وسيوفها، والذي لا يسري به جرح ما يصيح فهم معذورون، ثم إن الشيخ سيدي أحمد الرفاعي ﷺ صاح فى الوقت والساعة. فلما سمعوا صياحه وهم فى حالة الذكر والوجد جاءوا إليه فطلب منهم واحدا وكان فيهم واحد يدعى بطاوس المجنون، كان مشهورا يحمل بيت الشيخ فجأة وصاح صيحة عظيمة ومد يده إلى جانب البصرة كأنها السيف المسلول يضرب صاحبه أحدًا: فلما أن رآه العالم على هذه الحالة زاد إنكاره وقال كل هذا رياء وسمعة وبهتان، فعند ذلك قال سيدي أحمد الرفاعي لهذا الفقير طاوس أخبر مولانا عن صياحك الآن عندنا. فقال طاوس:

يا سيدي سببه أن لمولانا بهذا المجلس عندكم بنتا وأمها وهي زوجته، وهما في بيته الذي بالبصرة وقد عملت للبنت خلوطًا وأرسلتها مع المملوك إلى البنت فرأى تلك البنت جالسة وحدها. فحدثته نفسه الخبيثة أن يفعل معها الفاحشة ويزيل بكارتها، والحال أن والدها هذا جالس عندكم وفد من بلاده فعزت عليَّ تلك البنت، وصحت بهذه الصيحة العظيمة التى سمعتموها من شدة الحال التي حصلت عندي من الغيرة وضربت رأس ذلك المملوك بيدي. فكانت سيفًا بالقدرة فانقطعت رأسه حمايةً للجالس معكم ولمريدكم وخلصت البنت من هذا الخبيث ومن شره. وإن كان مولانا ما يصدقنى فإني أطلعه على ذلك عيانًا بيانًا.

فقال العالم أنا ما أصدقك حتى أرى بعيني، فقال له طاوس: ارفع رأسك فرفعها من جهة البصرة فرأى بنته والرأس وهى مقطوعة فوق سلالم بيته عيانا مشاهده. فعند ذلك صاح صيحة عظيمة وغاب عقله، وفى الحال قام وتوجه إلى البصرة. فلما دخل إلى بيته وجد الحكاية مثل ما حكى الفقير، من غير زيادة ولا نقص. فتعجب من ذلك غاية العجب وزال إنكاره وقوى حبه فى الشيخ وجماعته وزاد اعتقاده.

وما استقر فى بيته ساعة حتى عزم على الرجوع لأم عبيدة لزيارة سيدي أحمد الرفاعي وتقبيل يديه ورجليه والاندراج في خدمته. فلما أن دخل على السيد الكبير أخبره بما كان واعتد بخدمة الشيخ الاعتداد الكلي وصار من أكبر المريدين والمعتقدين، وزال عنه الإنكار بالكلية.

دفاع عن هذه الظاهرة وغيرها

فاعلم يا أخي أرشدك الله أن كل من صاح وصرخ وهو في وقت الوجد وطروء أحوار المحبة عليه لا يكون إلا عن أمر لا يطلع عليه إلا أهل الأحوال ومن لا علم له بذلك ولا معرفة له بأحوالهم فهو كالحيوان إن شاء اعترض وإن شاء لا. فهذا جاهل لا عبرة به ولا تعويل على اعتراضه. ولا يعرف بأحوال مراتب الفقراء وأحوالهم التي تعتريهم حالة الذكر إلا من كان عارفا بالله تعالى، ومن أهل الوقوف على علم الظاهر والباطن، ومنحه الله التعرف بعلم الحقائق فمن كان بهذا الوصف من العلماء أمكن أن يعرف أحوال الفقراء ومراتبهم. وبعد ذلك فللأولياء كرامات ووقائع خارقة للعوايد، يعجز عن إدراكها كثير من الناس. ولا يدركها إلا العارفون.

فأقل مراتبهم المكاشفات فاحذر يا أخي من الاعتراض عليهم والإنكار، ولكن الناس معذورون سيما في المعروف عن معرفة طريق الحقيقة ولو كانوا أهل الله أهل الشريعة.

وأعلم يا أخي أنك إذا رأيت جماعة ينكرون السماع والوجد والتَّولُّه الذي يكون بمجالس الفقراء، وحالتهم التي يكونون عليها، فلا تنكر عليهم وسلم لهم شؤونهم واصطلاحاتهم، فإنها مبنية على علم الباطن يعني الحقيقة، وقد ورد في حق السماع والوجد آيات متعددة من القرآن الكريم، وآحاديث وروايات

صحيحة، وآثار معتبرة راجحة كما ستعلمه إن شاء الله تعالى، فقد قيل السماع يطير بطيره من الخلق، وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: المرء عدو لما جهله، يعني أن كل من لم يعلم علما صار عدوا لذلك العلم، وعلماء الظاهر ما لهم وقوف على كمال العلم الرباني، ولكن قد يكون فى الصدور والقلوب علم، وعلم يكون فى الكتب والدروس، والأول يكون بمحض لطف الله تعالى، وهو علم الأولياء. وهو المسمى بالعلم اللدني ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (الحديد:٢١). ومحبة الحق ليست مسطورة في كتاب ولا مقروءة بدرس، والسماع في ذاته يطير بسائر الروح من اشتياق السامع إلى يوم خاطب الحق الخلق بـــ ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ (الأعراف:١٧٢) فوقت ذلك السماع يطير طير الروح إلى جانب عشق السماع الأصلي ويرجع إليه والعشاق، والطالبون الذاكرون في وقت السماع لا يبقى لهم قرار، وتظهر لهم حالات متعددة وهم مجبرون على إظهارها، وكل ممن لم يتلذذ بهذا الذوق الأصلي يتعجب من هذه الأحوال وينكر على أربابها ولكنه مغرور.

نقل أن أبا بكر الهواري ﷺ قال كنز العارفين عن سيدي أحمد: إن الله سبحانه وتعالى سخر جميع الحيوانات والأفاعي لسيدي أحمد الرفاعي، وهو سخرها أيضا لمريديه، وإن الله سبحانه أعطى لكل ولى من الأولياء كرامات وأسرارًا لا تحصى ولا تعد، وأعطى جميع ما أعطاه لهؤلاء الأولياء من هذه

الكرامات جميعها لسيدي أحمد الرفاعي ﷺ وهو أعطاها أيضًا كلها لمستحقيها من مريديه.

وبالجملة: إن الله تعالى أحسن للأنبياء بالمعجزات. ولأوليائه بالكرامات، ولكن ليعلموا بها فقراء مريديهم الفقر والفناء والاشتغال بالطاعات. حتى ينتج فيهم أثر الفقر.

نقل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رقى المعراج وصعد إلى السموات العلى ووصل إلى سدرة المنتهى، وشاهد عجائب الملكوت، وما فيه من المنازل والمقامات، ورأى هذه الغرائب بلا مكان ولا زمان، وأرآه تعالى ببصر البصيرة، وسلم الله تعالى هناك على رسوله بسلام من غير حرف ولا صوت حصل له صلى الله عليه وسلم من ذلك السلام شدة شوق ووجد واستماع وحسن حالة لطيفة، وفى أثناء الأستماع رفع حجاب الكثافة عن نظره حتي شاهده جل وعلا بعين الحقيقة. وكذلك رفع عن أذنيه حجاب الكثافة حتي سمع بأذن الحقيقة كلام الحق. ففي نفس الأمر اشتاق السماع من استماع الأرواح في الأول، أى في عالم نداء الذر نداء﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ (الأعراف:١٧٢).

فسماع الفقراء الآن ووجدهم، وهذه الحالات التي تظهر عليهم، وبكاؤهم وأنينهم وصياحهم أثناء ذلك كله سببه، ما ذكرناه. ولكنهم يميلون بذلك إلى رتبة (قالوا بلى) فافهم واعلم أن هذه الأمور يصعد شأنها إلى السماء السابعة، وأن كل من ولدته أمه وجاء أطرش فاعلم بأنه ما سمع فى عالم الذر والأزل نداء

ألست بربكم، ومن هنا علم أن السماع والوجد وهذه الأمور التى تعتري الفقراء حال الذكر من قبل حال العالم الروحاني اللطيف لا الجسماني الكثيف، وكل هيكل نفساني يلزم عليه أن يعرف هذا العالم لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (الأعراف:٢٠٤).

السماع الروحانى

واعلم أن أصل حال كل فقير السماع الروحاني وما عدا السماع الروحاني فهو لهو ولعب، ووسواس إبليس، والسماع الروحي بوحي من الحق إلى الخلق، وعلاقة السماع الصحيح المعتبر عند أهل النظر من أهل الطريقة والحقيقة هو أن يبلغ الفقير إلى حالة بحيث لو كان قدامه بئر لم يرها وإذا وقع فيها لم يدر بنفسه لشدة ما عنده من سكر الاستماع الحقيقى، وأما لو كان بحالة بحيث يعرف رأسه من قدميه، ويعرف أن قدامه بئرا أو يحس بوقوعه فيها إذا وقع فهذا سماع كلا سماع وسكره به بين السكارى المعتبرين غير مقبول.

السماع غريزة فطرية

وكل شخص سليم الطبع يميل بطبعه إلى السماع ألا ترى إلى الطفل في المهد إذا جاع وطلب اللبن من بز أمه وجاعته، ووسقته واشتغل به فبمجرد أن

يسمع الصوت الحسن يترك البز وشرب اللبن مع أنه حياته وغذاؤه. وقوام بدنه وقواه، ويتبع طرفه جهة الصوت.

ويتقيد بالسماع، ويتوجه بكله إلى جانبه، فهذا شأن الطفل مع عدم كمال عقله ولكنه قريب من العالم الروحاني، وكل من لم يكن عنده ذوق استماع السماع ولو كان شيخا كبيرا فهو في مقام الطفل الصغير بل هو أقل منه على ما سمعت فى شأن الطفل إذا سمع السماع وهو يشرب اللبن من بز أمه.

هدف السماع

واعلم أن الفقير يريد السياحة بسماعه وأحواله التي يفعلها حال الذكر بالرمز إلى أمور، فإذا مد يده إلى جهة من الجهات وهو يذكر الله تعالى يريد أن يده قصيرة عن طريق غير طريق الحق، وإذا خبط رجله على الأرض يريد به أن الدنيا وما فيها من المشاغل عن الله تعالى تحت قدمي هذا، يعني أسقطها عن قلبي بمحبته تعالى، وإذا دار الفقير فى حال ذكره ورجع إلى المكان الذي ابتدأ حركة الدورة منه فوصل منتهاها، يريد بذلك أنه ولابد أنه يرجع إلى أصله.

واعلم أنه ما يعرف هذه الرموز إلا من كان له خبرة بطريق السماع وأما من لم يكن عنده الذوق فهو معدود فيمن نام عن هذا السماع في مقام الغفلة، ومعدود مع من قلوبهم ميتة ولا خبرة لهم بالسماع.

والحاصل أن الله تعالى إذا منح أحدا الهداية وفقه لهذا السماع وفتح عليه أبواب الخبرة به، واما من لم يعطه الهداية لا يوفقه لذلك.

الإمام الرفاعي والسماع

نقل عن سيدي أحمد الزاهد- نفعنا الله ببركاته- أنه روى عن سيدي كنز العارفين، أن الشيخ الزنجي ﷺ، طلب من سيدي أحمد الرفاعي ﷺ، ملكا يتصرف فيه، فقال له سيدي أحمد اعلم أن ملك العرب والعجم نصفه لنا من إحسان الله تعالى، ونصفه الآخر لسائر المشايخ، ولكن أنا قد وهبت لك قيراطا ونصف قيراط يا زنجي، وأذنتك أن تذهب وتتوجه إلى ذلك الملك وتظهر شعائر الدين المحمدي فى وجودك، وفيما بين فقرائك وسائر مريديك، وتشيد أركان ذلك الدين بالحق، بأن تفعل مثل ما رأيتنا نفعل من بناء المساجد وإحياء السنة وفتح مجالس الذكر وإحداثها، وتحديد المحيا والصلاة على سيد الخلق، واجعل أصول السماع قائمًا، وغير قائم دائما كما رأيت ذلك الشخص الذي وصل إلى فيض الحق وعمل ذلك السماع بالوجد والشوق، يعني نفسه الزكية، فاللازم على الفقير الدرويش أن يكون مديم استنشاق مدام القرب والمحبة من الحق بالسماع بالذوق والشوق. يعني بالشرط السابق.

قال أهل الطريق من المشايخ: من أنكر سر السماع فهو منكر سر قوله تعالى فى محكم القرآن: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ (المائدة:٨٣).

نقل أن سيدي أحمد الرفاعي قدس الله روحه ونور ضريحه، قال للشيخ الأكبر الدوراني: يا أكبر اعلم أن المداح الذي يمدح بمجلس الفقراء بغير طمع وتوقع دنيا، وقصده مجرد وجه الله تعالى يكون له من الفقر سبعة قراريط، لكن بشرط أن يكون مداحًا بالحقيقة لا مداحًا مجازًا، وحيئذ يتصرف فى ذلك النصف المذكور كيف يشاء.

واعلم أن لهذا على الفقير شروطًا:

الأول: الفقر.

الثانى: الإذن له من صاحب جمعهم.

الثالث: أن ينشدهم ما يدخل قلوبهم من كلام الحقائق.

الرابع: أن يكون نديم شيخ المجلس، أي عارفا بما يروّح سره وقلبه.

الخامس: أن يكون صاحب حال ووجد.

السادس: أن يكون أمين الخزائن السرية، أى أمينا على الأسرار فلا يكون مبيحًا بالسر.

السابع: أن يكون بهلوانًا، أى فداويًا، كى يظفر على عدو أهل الحق والدين إذا وقع به فيمحوه.

والمداح في عسكر الفقراء كالطبل في عسكر الحرب فكما أن طبل عسكر الحرب يحرك الفرسان على الاقتحام لنار الهيجاء، كذلك المداح يحرك عسكر الفقراء على الاهتمام بالذكر، والولوج في حلقته ومجالسه، وكما أن الطبل يحصل للعسكر رونقا كذلك صوت المداح بمجلس ذكر الفقراء يحدث: به رونقا. واعلم يا أخي أنه بقى من أقسام المداح اثنان لكل واحد منهما نصيبه، الأول مداح ملوث بطمعه في الدنيا وهو الذي يكون مدحه لأجلها، والثاني مداح أعطى وظيفة خدمته حقها ولكلٍّ نصيبه.

واعلم أن لكل فقير كان ملازما على ذكر كلمة التوحيد واسم الله تعالى، ويأتى بهما مع قلبه بالسماع والخشوع ومداومته على الصلوات الخمس في أوقاتها من الأجر المترتب على الفقر ثمانية عشر قيراطا كاملة من غير زيادة ولا نقص. بل زائدة راجحة وتكون جميع أعماله مقبولة عند سيده غير مردودة، مثل الصراف للذهب الخالص لما يقبل الوزن الراجح. فإن الوجد والسماع شمع الطريقة. والتوحيد والمعرفة شمع الحقيقة. وأن لكل مريد كان مداوما على تلاوة القرآن، والصلاة فى أوقاتها، وممضيا أفعاله على قواعد الشريعة المطهرة. وكان متصفا بالسماع والوجد فى طريقة الفقراء وسائرًا فى جادة

الطريق المحمدية. متكملا حقيقة التوحيد للذات العلية. يحصل له فهم أسرار آيات القرآن الكريم [١].

ولا فائدة في الظاهر إلا إذا وفق الله الباطن لأن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم ونياتكم.

نقل أن الشيخ مسعود كان من أبدال الأتراك وكان قد اشتد شوقه وحبه للشيخ أحمد الرفاعي، فجاءه إليه حافيا عريانا ورأسه مكشوفة قاصدا خدمة عتبة الشيخ وخدمة بابه، ولازم الشيخ أربعين يوما بالخلوة وبايعه ﷺ وصار مريدا معتقدا، ووصل إلى مرتبة القطبية، بعد زمن السماع الروحاني والخلوة المذكور في سنة واحدة، ودخل إلى دائرة السكر، وألبسه السيد الكبير فروة جليلة من ملبوساته وجعله من جملة المقربين عنده، وصار الأبدال المعتزين بزي السيد الكبير، المنتسبين له بلبس شعاره.

وقال سيدي أحمد الكبير ﷺ في حقه: إن سيدي مسعود قد دخل بيتي، وقد أذنت له أن يكون خليفة، ورأسا مستقلا وأنه قد وصل إلى مراده، وقال في حقه أصحابه مثل ذلك وهو الآن مدفون في موضع يافث.

---

(١) فليتعظ بذلك أهل الطرق فى هذا الزمان.

لقاؤه مع الخضر

ونقل عن الشيخ سيدي الكبير سيدي أحمد الرفاعي أنه قال: كنت يوما من الأيام وهو يوم الخميس جالسا، وإذا بالخضر عليه السلام قد جاء إليَّ على سبيل الزيارة. فجرت بيننا مصاحبات وكلمات كثيرة في أثناء الكلام، فسألته عن نسبه، فقال: يا أبا الصفا أنا ابن أخنوخ وهو إدريس النبي عليه السلام، ولما أن دعا نوح عليه السلام على قومه وأراد الله أن ينزل عليهم الغضب أوحى الله تعالى إليه: يا نوح اصعد إلى جبل سرنديب وخذ معك تراب آدم وحواء وارفعه كي لا يختلط بماء الغضب، فامتثل نوح عليه السلام الأمر وتوجه إلى سرنديب، ونادى حين عزم على السير، وقال: يا قوم أنا متوجه إلى سرنديب هل منكم رفيق؟ فما بقي له رفيق فيهم، وما وافقه أحدٌ منهم، فوصل إلى جبل سرنديب ورفع تراب آدم وحواء ومن المحل الذي كانا فيه، ثم إن الله تعالى أرسل الطوفان على الدنيا فلما تم أمر الطوفان أمره الله تعالى أن يضع تراب آدم في حرم خليل الله عليهما الصلاة والسلام، وتراب حواء فى جدة بالقرب من بيت الله الحرام، فوضعهما في المكان الذي أمره أن يضعه فيه امتثالا لأمره تعالى.

ونقل أن الشيخ يعقوب الكراز قال رضي الله عنه: كنا ذات سنة من السنين مع سيدنا أحمد الرفاعي رضي الله عنه فى طلب الحج، فلما وصلنا إلى عرفات وصعدنا، وإذا بستة أنفار قادمين من جهة الشام، خمسة منهم لابسون الثياب الخضر، وواحد منهم لابس الثياب البيض، فتقيد السيد الكبير بهم، وكان أدبه وتقيده باثنين منهم زائدا.

فسألت عنهم السيد الكبير رضي الله عنهم أجمعين أجمعين، وقلت: يا سيدي من هؤلاء الجماعة؟ فقال لى: اذهب فاسأل عنهم، فذهبت وسألت عنهم فأجابني لابس البياض وقال: أنا الخضر هؤلاء الخمسة سيد المرسلين، وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضوان الله عليهم فلما سمعت ذلك منه رجعت وأعلمت سيدي بهم، فتوجه إليهم ثانيا ومس بوجهه قدم سيد المرسلين.

ثم لما رفع رأسه توجه إليه بالبشر صلى الله عليه وسلم وقبّل وجهه ومس جبينه بيده الشريفة. وقال عليه الصلاة والسلام له: يا ولدي أنت الرفاعي رفعت درجتك فى الدنيا والآخرة، وهذه الزيارة قد تيسرت لي أنا ببركة السيد أحمد الرفاعي ﷺ، وحصلت والحمد لله رب العالمين.

لقاؤه مع السيد الجيلاني

ونقل أن الشيخ عبد القادر الجيلاني قال: توجهت يوما حال سياحتي إلى زيارة السيد أحمد الرفاعي ﷺ، فبينما نحن جلوس معه نتصاحب ونتحادث إذ قد وقع في خاطري سؤال فى أثناء المصاحبة، فسألته وقلت: يا سيدي أنتم من ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ونسبكم هاشمي فلأي شيء وصفتم بالرفاعي؟ فقال السيد الكبير ﷺ: هى نسبة إلى جدي علي بن رفاعة من بنى الإمام علي، فالحمد لله أنا جدي الإمام علي كرم الله وجهه، وتربيت فى بيت أبى الفوارس. فلما سمع الشيخ عبد القادر الجيلاني ذلك من السيد الكبير ﷺ قال: سيدي أنت الرفاعي الفاطمي ابن ابن عم النبي القرشي.

ونقل من طريق آخر عن الشيخ عبد القادر الجيلانى أنه حين سأله عن هذه الأسئلة، قال له السيد الكبير رضي الله عنهما، نسبة إلى جدي علي بن رفاعة فالحمد لله أنا جدي علي، ونشأت فى بيت أبي الفوارس فقال له الشيخ عبد القادر رضى الله عنهما: أنت الرفاعي الحقيقي أنت ولد الرسول المعروف، وقد أعطيت من بين الأولياء هذه المراتب العلية المكرمة المشرفة، لكونك من هذا النسب المطهر، بسبب سلوكك طريق الفقر والفناء، وحاصله أنك صرت شيخ الشيوخ، وأن سلوكك متروك واسمك ملك الفوق والتحت، وصرت نورا على نور. يا أبا الهناء أبقيت من بعدك هذا الاسم لأولادك وفقرائك فإن كل من سلك في هذا الطريق، أى طريق الفقر عنك يسمى بالرفاعي إلى انقراض

الزمان. هكذا نقل بالسند الصحيح عن سيدي الشيخ عبد القادر الجيلاني فى حق السيد الكبير رضي الله عنهما وقدس سرهما.

شهادة الأكابر له

ونقل عن الشيخ علي الهيتي قال: كنا يوما من الأيام، وكان يوم الخميس قاعدين فى وسط الزلاقة فى خدمة الشيخ تاج العارفين أبى الوفاء، إذا بالباب طارق يقال له كنز العارفين ومعه جماعة من مريديه وفقرائه، فلما دخل وجلس عند الشيخ تاج العارفين وأخذ في المصاحبة والمحادثة، سأل الشيخ كنز العارفين الشيخ تاج العارفين عن أسئلة متعددة، وكان أحدها أن قال: مريدو مشايخ الخلف أكثر وأغلب من مريدي مشايخ السلف وفقرائهم، فقال له كنز العارفين: نعم إنه من بعدي يظهر من أطراف واسط، شخص من قريش من نسل أمير المؤمنين الحسين بن علي اسمه أحمد ولقبه الرفاعي، ويقال له الكبير أيضا، ويكون عالمًا حكيمًا متورعًا. عارفا بطريق المشايخ درويش الطبع، قانعًا مطيعا سائرًا على قدم النبى صلى الله عليه وسلم، قاطعا عمره فى الرياضة، وهو أسمر اللون متوسط القد، وجهه منير، وشعره أسود، وفى صدره شعر أسود، وهو كريم الخلق، ويكون فى صفة عيسوية وأحوال إبراهيمية، صاحب الأسرار الخارقة، والمواجيد والأحوال، وملازما قراءة القرآن. وهو فى عصره أكبر من عنده فى محبته وذوقه وشوقه إلى الله تعالى ويكون محبوه ومريدوه

وإخوانه كلهم مؤيدين ومرادين من جانب إرادة الحق تعالى. إذا حضر واحد منهم مجلسا سلب قلوب أهله، وجذب محبتهم إليه بإذن الله تعالى.

عناية النبى صلى الله عليه وسلم به

وقد أعطاه سيد النبيين محمد صلى الله عليه وسلم أسماء متعددة حسنة منها السيد أحمد الرفاعي. وسلطان العارفين. وسيد المشايخ. وصلاح الدين، ومحيي الدين. وأحمد الكبير. وأبو صالح، وأبو الصفا، وهذا يدل على شرفه الزائد ﷺ، وهو من بنى هاشم. وتكون فقراؤه ومريدوه موازينهم في طريق الفقر أرجح موازين الفقراء وأهل الأحوال. ومن أجله يسر الله لهم هذا المقام الكريم. ولا ينقطع فقراؤه ولا مريدوه إلى يوم القيامة بإذن الله تعالى. بل تزيد طريقه وسلوكه حرمة لجده سيد المرسلين عليه أفضل الصلاة والسلام؛ فإنه من أولاده رضوان الله عليهم أجمعين.

نقل أن الزاهد أحمد الكبير كنز العارفين قال: كنت يوما جالسا في واسط بالمسجد. فرأيت الخضر عليه السلام قادمًا ومعه ثلاثة أشخاص. ومعهم علم فيه سبعة ألوان ورمح وجريدة. وجوكان، وكان في يد الخضر عصًا من بُسْرٍ، فقالوا لي: اذهب معنا لتوصل هذه الأسباب إلي سيدي أحمد الكبير الرفاعي. فامتثلت أمرهم وذهبت معهم إلى السيد الكبير لخدمته، فأما العصا التي كانت بيد الخضر عليه السلام فمسكها السيد الكبير فى يده، وأما العلم الذي فيه سبعة ألوان، فإنه كان في

يد الغوث فأرسله السيد الكبير إلى الخزينة، وأما الجزيدة وقد كانت في يد إلياس فأعطاها إلى الشيخ عليان المجنون، وأما الجوكان فأعطاه إلى الشيخ مجرد الأكبر الدوراني وقسم التحف على أصحابه، وإلى الآن هذه القاعدة جارية فيما بين خلفائه ﷺ، فإنهم يهبون لخلفائهم بعض الأشياء على سبيل البركة.

وإن الشيخ العطار قد نقل في تذكرته أن مدد السيد الكبير كان من مدد جده سيد المرسلين عليه أفضل الصلاة والسلام، وما وصل إلى هذه الرتبة إلا ببركة سلطان الأنبياء، فإنه فرع تلك الشجرة الزكية. قال كنز العارفين أحمد الزاهد ﷺ: لا نبي بعد النبي صلى الله عليه وسلم ولا ولي بعد أحمد الرفاعي، وليعلم أن أولياء الله كثيرة، ولكن ما ظهر مثل أحمد الرفاعي مستجمعًا للخُلُق والحال المحمدي.

أخلاقه وكراماته في بدايته

وقد نقل الثقات من كراماته في بدايته الموافقة لحال جده صلى الله عليه وسلم أن الهاتف كثيرا ما يناديه من حيث لا يرى له شخصا، وكان يصغي له ويسمعه.

قال السيد نجم الدين: كنت يوم الخميس فى خدمة السيد الكبير في أم عبيدة فطلب السيد الكبير الخروج منها فتوجه وتوجهت معه حتى أتى إلى فرجة المحطبة، فدخل فيها وصرت معه حتي إلى أطراف تلك المحطبة، فجاء النداء

من الهاتف وهو يقول: يا أبا الصفا إن هذا اليوم يومك أعطاك الله سبحانه وتعالى كل ما تطلب، فاسأل سبعة حوائج تعطى لك، فسجد السيد الكبير إلى الحق في ذلك الوقت وتضرع إليه تعالى وتلا هذه الآية الكريمة: ﴿ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ (الحديد:٢١). وقال: الحمد لله، اللهم إني أرجو من فضلك وإحسانك، العلم وحكمة لقمان، حتى أداوي نفسي، والرياضة حتى السخاوة حتى أصل إلى المستحقين منها، وإجابة الدعوة حتى أدعو للمسلمين بما ينفعهم من الدعوات بالخير، والعفو والستر حتى أنظر للمسلمين بصفة الستر وأنظر لهم بعينه.

فلما فرغ من دعواته أجابه الهاتف وهو يقول: يا أحمد قد استجبنا منك ما دعوته، يا أحمد كل شيء طلبت يصل إليك، فلا يكن خاطرك إلا طيبا مطمئنا.

ونقل أن فقيرين من فقراء السيد الكبير أحدهما قوي، والآخر ضعيف تناظرا وتجادلا يوما من الأيام، فأداهما الجدال إلى أن القوي منهما أراد أن يظلم الضعيف في ليلة من الليالى، فعلم السيد الكبير بذلك من طريق الكشف، فجاء السيد الكبير في تلك الليلة التي أراد القوي أن يظلم فيها الضعيف وجلس، في مجلس الفقير متكئًا على جانب مثل ما كان يفعل ذلك الضعيف، فجاء الفقير القوي وهو فى شدة الغضب. فلما رآه جالسًا على تلك الحالة فى مكانه. ضربه ضربا شديدا وظن أن ذلك المضروب هو الفقير الضعيف. فما تحرك السيد

الكبير ﷺ من مكانه وما كأنه ضرب. ولا تألم مع شدة الضرب. فلما سكن غضب ذلك الفقير القوى بضرب الضعيف تألم للمضروب وتعجب من سكونه واستغربه فوجده السيد الكبير وأن الفقير القوي عرفه واستحى منه، فقال له: يا فقير أوجعت يدك لأجلي وآلمتها أبرئ ذمتي فما سمع ذلك الفقير إلا أن رمى نفسه فى ذلك الوقت على أقدام السيد الكبير، وقال: يا سيدي والله ما عرفتك فالله سبحانه وتعالى تعفو عني، وتستغفر لذنبي، وبكى بكاء شديدًا وذل ذلا كبيرًا فقال له السيد الكبير عند ذلك: يا فقير الحمد لله الذي أزال غضبك، وخلص هذا الفقير الضعيف منك، ثم إن الشيخ الكبير لما فرغ من هذه الملاطفة جمع الفقيرين فى ذلك الوقت وبين لهم شروط الطريق وآدابه. وطيب خاطر كل منهما على صاحبه. وصفى قلبيهما من التكدر. وكان ذلك من حلم السيد الكبير فرضي الله عنه، ونفعنا الله ببركاته.

ونقل أن قطب المشايخ أبا بكر الهوازنى سأل الشيخ الزاهد يوما من الأيام. فقال له: يا هوازني ألهمك الله اسمع ما أقوله لك. اعلم أن المشايخ الأقطاب وهوالسيد أحمد الرفاعي. مثل ما أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مائة وأربع وعشرون ألفا منهم ثلاثمائة وثلاثة عشرة رسلاً. ومنهم أربعمائة وأربعة وأربعون شيوخا على طبقات أربعمائة وخمس وأربعون، ورئيس جملتها: الواحد قطب الأقطاب. وكل واحد من هؤلاء الشيوخ قطب في وقته وفى بلاده التي كان يتصرف فيها. مثل أبي يزيد البسطامي. فإنه كان قطب بسطام.

وكان أبو يزيد البسطامي ﷺ له مقام فيما بين الأولياء مثل مقام جبريل عليه الصلاة والسلام فيما بين الملائكة. والله سبحانه وتعالى أذاق حلاوة مناجاته في عالم البصيرة لأبي يزيد البسطامي ﷺ، وهذه الحالة نهاية حال الأولياء وفيما بينهم عالية. ومعروف الكرخي كان قطب بغداد، وكان عيشه لجميع العالم، وكان يخالط كل فرقة وتقبله كل طائفة من القوم، بحيث إن كل من عاشره منهم يظن أنه منهم رضي الله عنهم أجمعين.

والحسن البصري ﷺ كان قطب البصرة. ولكن كان رحمه الله تعالى قطب الشيوخ، فإن جميع المشايخ منسوبون إلى الحسن البصرى، وإنابة الحسن البصرى ﷺ كانت من الإمام أمير المؤمنين وقدوة العارفين علي بن أبي طالب ﷺ، وعلمه طريق السلوك، ورواها عنه رضي الله عنهما.

وأبو سعيد بن أبى الخير كان قطب مهنته. وابن عون بن خلف البلخي كان قطب الأبدال والسيد مجرد الدوراني كان قطب تركستان وبيان. وعماد الزنجي ﷺ كان قطب خورستان.

وعلى بن نعيم ﷺ كان من أقطاب بغداد أيضًا. وقس على هذا بقية الشيوخ الأقطاب.

وإن أعلى طبقات المشايخ طبقة السيد الكبير الشيخ أحمد الرفاعي، ثم طبقة الشيخ أبي يزيد البسطامي ﷺ، ثم طبقة الشيخ معروف الكرخي، ثم طبقة

أبى القاسم الجنيد البغدادي ﷺ، ثم طبقة الشيخ ابن عون بن خلف البلخي البغدادي ﷺ.

واعلمَ أن كل من كان من أهل المعارف والأحوال. يعرف ما قلناه من هذه المراتب والتفاوت بينهما وعلو شأنها على غيرها مما عداها، وأما الغافلون والجاهلون فهم عن معرفة ذلك بمعزل.

ونقل أن الشيخ الزنجي قال: كنت يوما من الأيام أنا وعلي بن نعيم، ويعقوب الكراز، ومجرد الأكبر الدوراني: مع السيد الكبير أحمد الرفاعي ﷺ في خدمته، فبينما نحن في أثناء الكلام معه أن قال له يعقوب الكراز: أنا أتمنى أن أزور عيسى ابن مريم ﷺ، فلما سمع السيد الكبير كلامه تبسم وقال: توجه وزره وسلم لنا عليه، فلما خرجت من عنده إلى خارج المكان الذي كان السيد الكبير فيه حصلت لى حيرة فى نفسي وصرت لا أدرى أين أتوجه، ثم بعد ذلك رجعت إلى عقلي فوجدت نفسي فى خدمة عيسى ابن مريم ﷺ، فسلمت عليه وأقرأته سلام السيد الكبير. وقال لي: أقرئه السلام أيضًا منا وبلغه عنا. وقل له لا تنسانا من الدعاء. ثم إن الشيخ الزنجي صاح صيحة أدهشنا بها جميعًا ثم أفاق فلما رجع إلى عقله وجد نفسه فى جملة القوم عند السيد الكبير وهو وإياهم فى خدمته فرضي الله تعالى عنهم. وهذا الإحسان من بركة السيد الكبير.

أما قول عيسى ﷺ : لا تنسانا من الدعاء فيشبه قول النبي صلى الله عليه وسلم لعمر ﷺ: **(لا تنسانا يا أخى من دعائك)**، ومعلوم أن مريدي سيدي

أحمد الرفاعي كانوا كثيرًا جدًا لا يحصيهم عد ولا يحويهم حصر ولا حساب، ولكن كان كبراؤهم أربعة: الأول مجرد الأكبر، والثانى الشيخ عماد الدين الزنجي، والثالث على بن نعيم، والرابع الشيخ يعقوب الكرازي رضى الله عنهم أجمعين.

ونقل أن سيدي علي بن نعيم ﷺ قال: أن الشيخ كنز العارفين ﷺ يقول: المشايخ رضوان الله عليهم عددهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألف شيخ، وأعظمهم وأبرعهم فى باب المشيخة ثلاثمائة شيخ، وأفضل الثلاثمائة سبعون شيخا، وأفضل السبعين سبعة شيوخ وأفضل السبعة أربعة شيوخ، وأفضل الأربعة ثلاثة شيوخ وأفضل الثلاثة واحد، واصطلاح القوم والأصحاب أن هذا الواحد هو قطب الأقطاب، وقطب الأقطاب سيدي أحمد الرفاعي السيد الكبير.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بدلاء أمتى أربعون اثنا عشر في الشام، وثمانية وعشرون في العراق، فإذا مات واحد منهم بدل الله مكانه واحدًا فإذا جاء الأمر قبضوا كلهم.

الخضر وإشارات القرآن إلى الأولياء

ونقل عن الشيخ الزاهد كنز العارفين في حق هؤلاء المشايخ المذكورين والاولياء المكرمين أنه سمع من الخضر ﷺ خطابًا ربانيًا من الأحاديث القدسية أن الله تبارك وتعالى قال: أولياء تحت قبابي لا يعرفهم أحد غيري، وقد

ذكر في الاربعة وعشرين ألفا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ (التوبة:١١١-١١٢).

وذكر في حق الأربعة قوله تعالى ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ ﴾ (الأحزاب:٤٤). وذكر في حق الثلاثمائة قوله تعالى: ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة:٣٨). وذكر في حق السبعين والأربعين قوله تعالى: ﴿ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ (الأنبياء:١٠٥). وذكر في حق السبعة قوله تعالى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (الشعراء:٩٠). وذكر في الواحد وهو المقصود بالذات قوله تعالى: ﴿ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴾ (البينة:٨).

هذا تقرير الخضر عليه السلام في حق الأولياء، وتعليم تفاصيلهم لسيدي أحمد الزاهد الكبير كنز العارفين رضي الله عنه وعنهم أجمعين.

ونقل عن الحاج إبراهيم، وكان من نقباء السيد الكبير قال: كنت جالسًا في خدمته، فدخل علينا سيدي أحمد الزاهد كنز العارفين رضي الله عنه، وجلس قريبًا من

السيد الكبير، وكان حاضرًا ذلك المجلس الشيخ عماد الدين، فسأل كنز العارفين الزاهد وقال: يا زاهد من أفضل أهل طريق الفناء اليوم؟ فقال: يا بني اعلم أن طريق الفقر يشبه الدينار الذي يكون زنته ثمانية عشر قيراطًا. وقال سلطان الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه: خير الأنبياء أوسطهم، والأولياء تبع للأنبياء، ولا يخفى أن السيد الكبير من الأوسط بل هو الأوسط.

رأى الشيخ زيد بن عبد الله سلطان الانبياء عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام، فسأله صلوات الله عليه من يكون أعلى المشايخ ومن أى قوم يكون؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا زيد هو من أقربائك اسمه أحمد الرفاعي.

ونقل عن الشيخ منصور العدوي قال سمعت من الشيخ الزنكي قال: إن السيد أحمد كان في ليله ونهاره يختم القرآن الكريم. وكان ورده وذكره قراءة القرآن، فإنه أفضل الذكر. وقال الحكيم الترمذى رأيت ربى فى المنام فقلت: (يا رب بأى عبادة يتقرب إليك؟ قال الله تعالى بتلاوة كلامى، فقلت: يا رب بفهم وبغير فهم؟ قال الله: بفهم وبغير فهم).

وروى أن عمر الهروي قال: سمعت من الشيخ الزنكي قال: كنت مع السيد الكبير أحمد الرفاعي فتوجهنا إلى محطبة القاسمية، فلما وصلنا إلى المكان المذكور خرج علينا أربعة عشر سبعًا فقصدوا كلهم السيد الكبير، فلما وصلوا إليه وقعوا على قدم الشيخ يقبلونه ومرغوا رءوسهم وخدودهم على أقدامه

وزاروه، ثم إنه توجه وتوجهنا معه إلى جانب الماء فلما وصلنا إلى ساحل البحر خرجت الأسماك من الماء وقد رمت بأنفسها على أقدامه وزاروه.

ثم سار من ذلك المحل وعبرنا البحر، ومشى على الماء ومشت الفقراء كلهم وراءه فوق وجه الماء فما وصل الماء إلى شيء من أرجلنا ولا ابتلت بإذن الله تعالى.

ثم إننا لما خلصنا من ذلك المكان وسرنا فوافينا مكانا فيه ناس جلوس. فلما رأوا الشيخ الكبير قام جميعهم، وأتى الجميع إلى السيد الكبير وأجلسوه فى الصدر وجلسوا بين يديه بالأدب. وتوجهت إليه خواطرهم وانصرفت إليه أبصارهم، وكان أول هؤلاء الجماعة بالأدب مع السيد الكبير الخضر عليه السلام وثانيهم إلياس وثالثهم الغوث ابن خلف بن أحمد والرابع الصوفي الصادق القرشي، والخامس كان قنبر الثوري، والسادس كان نقيبًا، وكان مع هؤلاء الجماعة السبعون الأخيار، وكان معهم السبعة عشر الأخيار، وبالجملة فقد كان هذا المجلس يشتمل على نحو مائة نفر، واستمر السيد الكبير معهم إلى المغرب وهو يعمل الصحبة والمحادثة.

ثم إننا سرنا والأستاذ الكبير من ذلك الموضع مع العجلة والإسراع فبعد أن خرجنا من تلك المواضع رأينا في أطرافها شابًا حسن الوجه دائرًا متحيرًا، فلما شاهد السيد الكبير أقبل مسرعًا لخدمته وقبل يده، فقال له السيد لأي شيء تدور هنا وما حاجتك في هذا المكان؟ فقال الشاب: يا سيدي إن لى سبعة أيام

وأنا خارج من واسط أدور على سيدي أحمد الرفاعي، فإني قد سمعت أوصافه الحميدة فأحببته محبة زائدة يا سيدي وأنا ابن سلطان مصر، فقال له السيد الكبير: أأنت ابن عزيز مصر؟ ما يناسبك أن تكون هكذا، فقال الشاب له: يا سيدي أنا معزور لأنى من اليوم الذي سمعت فيه اسم سيدي أحمد الرفاعي حصل عندي شوق وذوق وقوة توجه إليه. وما بقي لي قرار ولا اصطبار أن أقعد في بلدٍ من البلاد، بل ها أنا متوجه إلى طلب الاجتماع بالسيد الكبير والإقامة فى خدمته وقد كانوا منعوني منه.

فقال له الشيخ: إن رأيت السيد أحمد تعود إلى بلدك ومكانك؟ فقال: أعوذ بالله أن يكون لى طاقة على فراقه بعد رؤيته، فقال السيد الكبير السيد أحمد الرفاعي الذي تطلبه هو أنا الذي تشاهدني وتراني.

فلما سمع ذلك الشاب ما وسعه إلا أنه ألقى بنفسه على أقدام السيد الكبير، وبكى بكاء شديدًا، وبعد أن أخذ حظه ونصيبه من الشيخ والإجتماع به قال له السيد الكبير يا ولدي أنت والدتك منتظرة لك غاية الانتظار وقلبها عليك حريص، وكذلك والدك فتوجه إليهما أن كنت قادرًا فقال الشاب: يا سيدي أيمكن أن أتوجه لهما فى هذه الساعة وأنا لا أدري في أي مكانٍ أنا؟ فأمسك السيد الكبير يده اليمنى بيده اليمنى وأمسك يساره بيده اليسرى ورمى به فى الهواء فرآى نفسه بمصر فى دياره بحول الله وقوته في الحال. وبقي على صدق حبه وعزيمته ومودته الكبير، إلى أن مات رحمه الله، والله أعلم.

ونقل الزنجي أن الشيخ عمر الهواري قال: مدة عمر السيد الكبير سيدي أحمد الرفاعي ستة وستون سنة وستة أشهر وستة أيام وست ساعات: وكان مولده يوم الخميس وانتقاله من الدنيا يوم الخميس رحمة الله تعالى عليه. وما حفظ عنه أنه ضحك يومًا في عمره. وما رآه أحد يضحك قط وإنما كان دائم البكاء.

روى عن الشيخ يحيى أنه قال: ما رئي الشيخ الكبير وهو يأكل الطعام ولا وهو نائم. وما كان أحد يعرف مكان نومه. ولا فرح مع أحد ولا مازحه وما كان يتكلم من غير سبب ولا موجب: وما كان أحد يقدر أن يتكلم معه أو يكلمه من غير سبب لما كان عنده وعليه من الجلالة والمهابة. وإذا استدعى أحدا يمشى إليه لأمر. فكان يتقيد ذلك الواحد بالشيخ من ساعته بإذن. ويحرص على السير معه بالأدب فلا ينطق بقليل الكلام، ولا بكثرة إلا بكثيره.

ونقل أن الشيخ حجي خالد، ومجرد الأكبر. وعماد الدين الزنجي، وعلي ابن نعيم البغدادي. ويعقوب الكراز، والشيخ علي بن عبد الوهاب وسيدي عبد السلام، وسيدي عبد القادر الكيلاني، جميعهم شهدوا. أن جميع الأولياء تشهد أن السيد الكبير سيدي أحمد الرفاعي غالب أوقاته دائر فى العالم العلوي. ووجوده في العالم السفلي كناية عن النوع، لأنه كان دائم السكر والغرق في بحر المحبة للحق. وكان دائم التوجه إلى العالم المجرد والفناء المطلق.

ونقل أن السيد الكبير إبراهيم الأعزب ﷺ قال: أعطى الله سبحانه وتعالى الكرامة والفراسة لسيدي أحمد الكبير، وعلمت الفقراء كلهم هذا الحال.

ومن جملة أحواله اللطيفة وكراماته الشريفة، أنه صلى صلاة الجمعة يوما بدمشق الشام، وصلى صبح سبتها فى طور سيناء، وصلى صبح الأحد فى البيت المعمور، وصلى صبح الاثنين بالمدينة المنورة، على صاحبها وساكنها أفضل الصلاة والسلام، وصلى صبح الثلاثاء في جامع بعلبك في مزار نوح عليه السلام، ويوم الخميس صلى الصبح ببيت المقدس، وصلى صبح الجمعة بمكة المكرمة، وهذا حاله من هذا الترتيب دائمًا.

وكان ﷺ بعد يوم العيد الصغير أعنى عيد الفطر لا يخرج من أم عبيدة أبدا ويتقيد فيها بطريق الصلاح والفقر، والسنة، والجماعة أربعين يومًا تمامًا، ولهذا نقل عن سيدي عثمان بن عبد الرحمن أنه نقل عن المحققين أنهم قالوا: ما لازم أحد أم عبيدة أربعين يوما بطريق الفقر والصلاح والسنة والجماعة والمحو والفناء إلا فتح الله عليه وحصل له جميع مراداته كما هو مجرب وقد شوهد كثيرًا.

الخضر يلبسه الخرقة والتاج

ونقل عن سيدي إبراهيم الأعزب أنه قال: كنت عاشر عشرة من الفقراء مع السيد الكبير فى عام حججنا. فصلى بنا السيد الكبير الصبح وصلاة العيد

بمكة وكنا نطوف معه البيت ثم توجهنا إلى عرفات فرأينا الخضر ﷺ مع سبعة أنفار من الرجال فسلموا كلهم على السيد الكبير وجلسوا جميعًا. فلما تم المجلس بتمام النهار قال الخضر ﷺ: يا أبا الصفا قد جاءت لك من جانب الحق تعالى خرقة وتاج فاقبلهما والبس التاج وكان ذلك التاج من القطن الأبيض وأسمه طاقية. والخرقة كانت من أشياء كثيرة متعددة مختلفة الألوان. فكان فيها قطعة من القطن. وقطعة من صوف الغنم. وقطعة من شعر الماعز. ومنها من اللون العسلي. ومنها اللون الأحمر. ومنها اللون الأزرق الصافي. واللون الكحلي واللون الأسود. وغالب ذلك كله قطن وفيها من قطع الجلد الألوان كذلك. ومن قطن الحرير كذلك. ومنها شيء من جلد السبع وقطعة من السندس، والأصل أنه كان فيها نحو من الثمانين قطعة ملونة.

ثم أن السيد الكبير سأل الخضر ﷺ عن سبب إختلاف هذه الألوان وأنواع الحقائق التي بهذه الخرقة فقال له الخضر: إشارة إلى أن الله تعالى جعلك أعلا مقامًا من سائر المشايخ وأن زينة مشيختك جامعة لسائر رتبهم، وأرسلها تشريفًا لك وإشارة إلى أن عسكر فقرائك أكثر من فقرائهم. ومريديك أكثر من مريديهم. وأنه أجاز لهم أن يلبسوا أى شيء أرادوه من الخرق على أى لون أرادوه. وهذا الشيء خاص بهم دون غيرهم.

ونقل أن سيدي أحمد الزاهد كنز العارفين قال: جميع كرامات الأولياء كان الأولياء يتصرفون بها فى حال حياتهم خاصة. فإذا ماتوا انفصلت عنهم إلا

السيد الكبير فإن كراماته معه حيًا وميتًا لم تنفصل عنه. وكراماته ﷺ كل يوم وعصر في ازدياد بإذن الله تعالى.

حرصه على مريديه

ونقل عن الشيخ على أنه قال: بينما الشيخ الكبير السيد أحمد جالسًا يومًا بالخلوة. وإذا به سمع النداء يا أبا الصفا إن الله سبحانه وتعالى قد أعطى لك قضاء ثلاث دعوات فاسأل ما تريد. فإنك عنده من المقبولين فعند ذلك توجه السيد الكبير متأدبًا للتضرع وقال: يا رب. أسألك أن ترحم وتغفر لكل مريد لي أسألك يا رب أن ترحم من واسى أولادي. وأسألك يا رب أن ترحم كل من كان محبًا ودودًا لأهل بيتى فعند ذلك سمع قائلاً يسمع صوته ولا يرى شخصه وهو يقول: يا رفاعي قد أستجبنا لك بمقتضى قولنا: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ (غافر:٦٠).

زهـــــده

وروي عن سيدنا علي بن نعيم أنه قال: كان طعام سيدي السيد أحمد الرفاعي الكبير خبز الأرز وما يفضل من اللباب والكسر وفضلات موائد الواردين والضيفان، وما أكل الخبز الساخن في عمره قط، وكان إذا أفطر من الصوم لا يفطر إلا على لباب المائدة الفاضل منها الذي كان يجمع ويوضع

بمكان منحاز من الخلق خشية عليه من الأرجل، وكان حين يستعمله يبلونه بالماء ويفطر فسأله الفقراء عن ذلك وقالوا له يا سيدي أن الإفطار على التمر من سنة الرسول صلى الله عليه وسلم كما تعرفونه وتفيدونه، فقال السيد الكبير: نعم سنة فكلوا منه وأفطروا عليه. ثم أنهم قدموا له شيئًا من التمر فتناول السيد منه تمرة واحدة وقال: بسم الله الرحمن الرحيم فأكلها. وقال: أكلتها لأجل خاطركم.وكان الذي جاء بالتمر للأستاذ هو الشيخ مجرد الأكبر فعند ذلك عرف السيد الكبير أن الشهوة تميل إلى اللذائذ فتركه وما أكله من ذلك اليوم أبدًا (١).

صيامه وزهده فى طفولته

وروي عن سيدي يحيى أنه قال: إن سيدي أحمد الرفاعي ما أكل الخبز الساخن في عمره أبدًا، وما نام أبدًا فى الليل، وما ضحك أبدًا. فى زمن الطفولية، وما لعب مع الأولاد قط. وكان وهو طفل من عوائده الحسنة أن يجمع الخبز ويعطيه لهم ويتقيد بخدمتهم وكان من عوائده أن يزور المهجور من المساجد ويزور المقابر. ومن حين كان طفلاً كل من صاحبه أو حادثه لا يتصاحب معه إلا بالنصيحة والفوائد. وكان الناس يتمنى الواحد منهم أن

---

(١) وذلك زيادة فى الزهد فإن الله تعالى يقول: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ [الأعراف:٣٢].

يصاحبه لحظة لشدة محبتهم له. وكل من نصحه من هؤلاء المصاحبين لا يروح إلا وهو من الفائزين من تلك النصيحة ﷺ.

وحكي أن السيد على بن السيد أحمد الصاد ابن السيد عبد الرحيم صاحب الشباك قال: إن مولانا السيد الكبير ولد فى أوائل رجب فأراد سيدي منصور الرباني أن يسميه بشيبة الحمد. فسمع هاتفا يقول له: إن اسمه أحمد الرفاعي، وهذا الذي سميته به، وكان يشرب اللبن كل يوم من حين ولدته أمه إلى رمضان فتقيد بعدم شربه اللبن فيه إلى حين جاء العيد فشربه في أول يوم وأفطر مع الناس فيه. وما شربه فى أوائل شهر محرم الحرام عشرة أيام.

والحاصل أنه كان غالب، أيام السنة صائمًا من حين برز إلى الوجود إلى وقت خروجه من الدنيا.

وكان يقوم الليل كله، فرحمه الله ونفعنا ببركاته وبركات خلواته وصلواته ونفحاته وأسراره فى الدنيا والآخرة.

رؤيته لله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم مناما

وعن الشيخ نجم الدين أنه قال: قال لي سيدي أحمد الرفاعي: قد رأيت الله سبحانه وتعالى في المنام مائة وأربع عشرة مرة ورأيت سيد المرسلين عليه أفضل الصلاة والسلام مائة وسبعة وأربعين مرة وقال: هذا في النوم وما غاب عني يقظة أبدًا.

انفعال الأكوان له

وحكي أن سيدي نجم الدين ﷺ قال: كنت يومًا بعرفات جالسًا مع الخليفة أحمد والخضر عليه السلام ونحن نتصاحب ونتحادث، وإذا بسلطان العارفين السيد أحمد جاء في صورة بدوي، فقمت إليه أطرده وكان معي سكين في قرابها فسللتها، وسعيت خلفه ففر قدامي، فكلما قربت منه طار في الهواء، فقلت له: يا سيدي أنا من جملة المحبين لكم وأنا أخرج معكم، فقال لي السيد الكبير: إنا قوم لا نعرف المزاح وإنما نعرف الجد والحق.

ثم إني سمعت الهاتف ينادي ويقول: يا أهل العزة لأي شيء تمزحون مع بعضكم هذا المزاح؟ اتركوا المزاح، فلما سمعت هذا الكلام ورأيت من السيد الكبير ما رأيت وما وسعني إلا أن وقعت على أقدامه فقبلتها وقلت: يا أبا الصفا أرجو منك أني أزور ضريح آدم عليه الصلاة والسلام معك، فقال: تعال نتوجه فتوجهت في خدمته إلى أن وصلنا إلى ساحل البحر فقال: امش قدامي على البحر وأنا أمشي بعدك على البحر فمشيت على البحر فأتيت إلى الساحل الثاني ثم نظرت خلفي لأرى الشيخ وهو يمشي خلفي على البحر، فرأيت البحر قد انضم وضاق حتى صار كالمجرات الصغيرة، فمد السيد الكبير رجله ووضعها على الساحل الذي أنا فيه والرجل الأخرى فوضعها على (سرنديب) فزرنا تربة آدم عليه الصلاة والسلام.

فقال لي: ألك مراد آخر يا سيدي نجم الدين؟ فقلت: مرادي نتوجه إلى بيت الله الحرام، فمد السيد الكبير قدمًا أخرى ثالثة فرأيت نفسي أنا وإياه في بيت الله الحرام ورأينا به سيدي أحمد بن خلف القطب والكعبة طائفة به [١] فأخذ السيد الكبير يطوف بهما فقال لها: اسكني بعزة العزيز ورب العالمين مكانك، فأطاعته وسكنت وقد رأى السيد الكبير هذه العزة في هذه الزيارة ببركة اسم العزيز، لأن هذا كان ورده طول عمره وكان إذا أقسم على شيء لا يقسم إلا به فرضي الله تعالى عنه وأعزنا ببركته.

تواضعه مع حساده

وحكي أن علماء بغداد وجميع أئمة العراق كانوا يحسدون السيد الكبير لأنهم علموا زيادة رفعته، وأن تزايدها في كل يوم وكل عصر، وانتشار صيته في العالم لا ينقطع بإذن الله، فكاد يهلكهم الحسد وعجزوا عن الصبر عنه وشرعوا معه في كلام السفاهة غير الجائز في الشرع فكان السيد الكبير إذا سفهوا عليه يدعو لهم بالخير، ويكلمهم بالكلام الطيب، ومع أذيتهم له شدتها يعاملهم بالإحسان، ويرتب لهم الوظائف والجهاد وإذا لقيهم بطريق يتواضع لهم غاية التواضع، فلما رأوا منه ما رأوا من هذه الأخلاق الحميدة عملوا معه التواضع الزائد وصاروا يراعونه مراعاة تامة، ورجعوا أجمعين مريدين

(١) وذلك لأن حرمة الولي عند الله أعظم من حرمة البيت.

ومعتقدين، واعترفوا بالحق وأوصوا أولادهم وأهليهم وأتباعهم باتباع السيد الكبير وصاروا من مريديه وأهل نسبته.

خصائصه وشمائله

وكان ﷺ يقول: نحن من قوم لا يفتخرون بآبائهم ولا بأجدادهم ولا بحسب ولا بنسب، دائمًا يفتخرون بالتقوى والذين وهكذا القوم الدين تبعوه فرضي الله تعالى عنهم وعنه.

ونقل أن الغوث أحمد بن خلف سأله أحمد الزاهد كنز العارفين يومًا، فقال: قد أعطى الله تعالى سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام التاج والمعراج والبراق والمحراب في الأنبياء، فما الذي أعطاه لسيدي أحمد الرفاعي في الأولياء؟ فقال: يا كنز العارفين أما أولاً فالسيد الكبير قطب الأقطاب، وواضع المحيا الذي هو الحج الأصغر، وله من المريدين جماعة وكل واحد منهم كان قطب العالم، وسخرت له السباع، والنمور والحيات والعقارب، وقد تكلم وهو في بطن أمه، ومريدوه لا تنقطع إلى يوم القيامة وهذا له من بركة جده سلطان الأنبياء محمد بن عبد الله بن عبد المطلب عليه وعلى جميع إخوانه من الأنبياء والمرسلين أفضل الصلاة والسلام.

ومما أعطاه الله تعالى أن علمه جميع لغات الطيور ولغات الأسماك وأنه تكلم له البحر المالح والبحر العذب والفرات وغيرها والأزهار والأحجار، وهذه

العطية يا كنز العارفين ما أعطيت لأحد من أولاده عليه أفضل الصلاة والسلام، أي الأولياء الأشراف سواه ﷺ، وحاصله أنه تعالى أعطاه في الأولياء ما أعطى نبيه عليه الصلاة والسلام في الأنبياء كل ذلك ببركة جده سلطان الكونين.

وأن سيدي السيد أحمد الرفاعي كانت الدنيا كلها عنده وأطرافها متساوية لديه من حيث النظر فالشرق والغرب سواء، فإذا وقف في أحدها يرى ما في الآخر، ويرى ما في العالم العلوي، من جميع الأفلاك، ويرى العرش واللوح والكرسي، ويرى ما في الثرى وتخوم الأرض ويشم من عرقه رائحة الورد، وجميع مشايخ العالم مريدوه في الظاهر والباطن، وكل شيء أراده أحد منهم أعطاه له.

وقال أحمد بن تاج العارفين: إن السيد الكبير كان في الحسن والجمال مشابها ليوسف عليه السلام في الصورة، ولداود عليه السلام في الصوت ثم خلقه محمدي، وكان لما يشرب الماء ويفرغ من شربه يقول له أصحابه: صحة وهي من جملة اصطلاحهم وكانوا يبدءون عند الورود بالسلام والمساء والصباح، وعند الصدور عن مجالسهم، فيقولون: السلام عليكم، صباح الخير ومساء الخير، فرضي الله عنهم أجمعين.

ونقل أن الشيخ عماد الدين الزنجي سأل السيد الكبير فقال: أي سيدي ما سبب اشتهاركم بالرفاعية؟ فقال السيد الكبير: يا زنجي هو أني كنت يومًا جالسًا في عرفات، فإذا جماعة من الأولياء وأهل الطريق الأبدال في ذلك المجلس،

فالتفت في جانبي فرأيت سيد المرسلين فقال: يا رفاعي قد ارتفعت درجتك في الدنيا والآخرة، بشارة لك، فصار اسمي من ذلك اليوم مشهورًا بالرفاعي بين أهل الحضرة؛ لأنهم سمعوه من نفس النبي صلى الله عليه وسلم.

مع أكابر مريديه

ونقل أن سيدي أحمد بن عبد الرحيم صاحب الشباك قال: سمعت من والدي أنه قال: كنت يومًا جالسًا في مجلس السيد الكبير فقال الشيخ بدر: يا سيدي قد رأيت في منامي في هذه الليلة أن الشيخ مجرد الأكبر فرش سجادته في الهواء وهو يصلي عليها.

قال السيد الكبير: يا شيخ بدر صدقت في منامك، فإن مجردًا قادر على هذه المرتبة يقظة لأن مقامه عند الله عظيم، وأعطاه الله تعالى مراتب عظيمة، منها أنه صاحب الصدق والصفاء واليقين وأنه صائم الدهر، وقائم الليل، وأنه ما صدر منه في مدة عمره كذب ولا غيبة ولا بهتان ، وأنه ما طلب من أحد شيئًا وأنه من حين دخل إلى طريق الفقراء ما وصل أحد إلى سره وأن الله تعالى أعطى له عطية وهي أنه ما تحركت عليه شهوته، وما احتلم في مدة عمره قط وما ذاق وسوسة الشيطان، ورتبته من رتبة عيسى عليه الصلاة والسلام وهذه سجادته في الهواء، ويصلي عليها.

وفي الوقت الذي كان السيد الكبير يقرر في هذه الصفات كان الشيخ الزنجي حاضرًا في ذلك المجلس فخطر بباله أن مجردًا ما هو من أهل هذه المرتبة، ولا هو موصوف بهذه الأوصاف، فاطلع على ذلك الخاطر السيد الكبير من طريق الكشف، فقال: يا زنجي لأي شيء تحسد أخاك، وتوجه السيد الكبير إلى الجانب الذي فيه مجرد في البطيحة، وقال: يا مجرد يا مجرد يا مجرد فأجابه مجرد وقال: نعم يا سيدي، وقال السيد الكبير: لأي شيء يا مجرد ما رددت الجواب في الأولى والثانية؟ قال مجرد: يا سيدي كنت في الصلاة ، وفي الثانية كنت في السلام والآن قد رددت الجواب وجئت إلى خدمتكم.

قال: فلما سمع الزنجي ذلك خجل وطلب الخلوة، ودخلها بإذن السيد الكبير مخلصًا، وبقي بها أربعين يومًا، فإن الفقراء ما يفتح عليهم على الغالب إلا بالخلوة، فلما تمت الأربعون، وإذا هو يسمع الهاتف وهو يقول: يا زنجي اطلب مرادك، فقال الزنجي: أطلب رضاء الحق تعالى فجاء الرد من الهاتف: قد رضينا عنك، وأعطى الله تعالى للزنجي أربعين عطية ، فتزحزح المجرد من الخلوة، فقال السيد الأكبر يا مجرد يا مجرد أخوك الزنجي كان قد حسدك وادعى في نفسه دعوة فأبرئ ذمته لوجه الله، فأبرأ مجرد ذمة الزنجي لوجه الله مثل ما أمره السيد الكبير ودعا مجرد له قائلاً: اللهم أكثر من أولاد الزنجي، فاستجيب لهذا الدعاء وكثر الله تعالى نسل الشيخ الزنجي ببركة دعاء مجرد له، وجعل الله منهم أربعين قطبًا فرضي الله تعالى عنهم أجمعين.

ونقل عن سيدي أحمد كنز العارفين أنه قال: من عادة الفقراء أن خيولهم كلها سائبة في الصحارى والبراري مجردات عن آلاتها وعددها فإذا أراد أحد التوجه إلى جانب أحضروها وأسرجوها وساروا عليها إلا الأكبر فإن حصانه كان دائمًا معدًا متهيئًا للركوب مسروجًا ملجومًا وصاحبه مجرد هذا يلقب عندهم بفارس ميدان التوحيد وغازي الفقراء قدوة بيت الرفاعي فرضي الله تعالى عنه وعنهم أجمعين إلى يوم الدين.

ونقل الشيخ عمر الحراوي أنه دخل يومًا على الشيخ عماد الدين الزنجي وهو جالس وحده في الخلوة وهو يبكي شديدًا وإذا بالفقراء يأتون إليه زمرًا زمرًا ويسألونه عن سبب هذا البكاء فقال: إنه سيكون من أولادي وذريتي من يطلع ويتنافس مع أولاد السيد الكبير في مرتبة الولاية، فأنا أبكي على هذا الأمر وما أرى لأحد من أولادي ولا غيرهم أن يكون له مقام أو حديث يسمع مع أحد من أولاد السيد الكبير.

ونقل عن الشيخ عماد الدين الزنجي أنه كان يكنس بلحيته خلوة الشيخ السيد أحمد الرفاعي التي بأم عبيدة ووقع ذلك منه ﷺ مرارًا كثيرة، وكان يخدم الشيخ الخدمة الكاملة ويتقيد به التقيد التام، حتى صار بذلك محترمًا مقبولاً عند الله وعند الناس ومن خَدَم خُدِم.

وروي أن الشيخ الزنجي كان له مريد يدعى منصورًا من قزوين وكان يحب الشيخ بحبه كذلك وكان يلازم الخلوة وطاعة الله قائم الليل وصائم النهار.

ونقل أن بعض مشايخ البطائح قدم على الشيخ السيد أحمد الرفاعي راكبًا على لبوءة وبيده حية يلعب بها، فقال له الشيخ السيد الكبير: إذا كان فعلك هذا ليعتقدك الناس فالاعتقاد مليح غير أنه ربما ينتج العجب والعياذ بالله وتضيع أتعابك حينئذ ثم إن الأستاذ الكبير أشار إلى الحائط أن تتحرك وتمشي فكان ما أشار به فصار الحائط والرواق معه يمشيان فخجل ذلك الرجل وقال له السيد الكبير: اعلم أنه لا شيء أكبر من العجب والرياء، وربما كان يعد أشر من عبادة الأصنام، فتاب الرجل واستغفر.

ونقل أن السيد أحمد الرفاعي اتفق له أن هرة جاءت ورقدت على ذيل جبته، ثم أن الصلاة قد أزف قيامها، والمؤذن أقامها فتحير أن يقوم للصلاة فيشوش عليها وهي في حضورها وسرورها أو أن يترك الصلاة لأول وقتها فيفوت وقت الفضيلة فقص السيد الكبير ذيله لأجل الهرة ومراعاتها، فلما أن ذهبت الهرة من على ذيله أخذ القطعة التي قطعها وخاطها مكانها، وبمثل هذه الأخلاق الشريفة الحسنة أعطاه الله تعالى رتبة المشيخة على الشيوخ.

ونقل عن الشيخ السيد الكبير أنه قال لمريديه وفقرائه: يا إخواني اتبعوني واسمعوا نصائحي ترشدوا. كونوا مواظبين على الصلاة المفروضة وابعدوا عن الحرام، وراعوا الآداب على مقتضى أوامر الخالق العظيم وامشوا على منهج الطريق المستقيم وتقيدوا بخدمة الفقراء، إخوانكم والضيوف والغرباء والمساكين

وعليكم بالأذان حسبةً: فإن للمؤذنين درجة عالية عند الله، والمؤذنون أطول أعناقًا يوم القيامة.

فلما سمع الفقراء مقال الشيخ ونصائحه قام مجرد الأكبر وقال بأعلى صوت: يا سيدي أشهد علي ويشهد الفقراء كذلك أني أعمل بجميع ما نصحت به، ثم إنه من ذلك الوقت صار مؤذن الرواق والفقراء وخادمهم.

وروي أن السيد الكبير ما فعل شيئًا إلا وصدره بقوله: بسم الله الرحمن الرحيم، وكان لقبه الأول القديم أبو الوفاء، وحين صعد إلى كُشِفت عالم الأرواح وهو الملكوت الأعلى لقب بأبي الصفا.

وروي عن بعضهم أن الله أعطى من أمر الولاية كل واحد من المشايخ قطعة، وأعطى كل مراتبها للسيد أحمد الكبير، وأعطى كل واحدة قطعة من أرض الدنيا وأقطع الدنيا كلها للسيد أحمد الكبير فأعطاه الشرق والغرب والأقاليم السبعة، ومن هنا ترى مريديه في حياته من العجم والترك والمغاربة، والمشارقة وأهل ما وراء النهر، وكل ذلك ببركة خدمة الفقراء فرضي الله عنه.

سنده في الخرقة

ومعلوم أن السيد الكبير لبس الخرقة من سيدي الشيخ منصور، وهو من سيدي الشيخ أبي محمد الشنبكي، وكان عين مشايخ البطائح ولبسها أبو محمد

من الشيخ أبي بكر الهواري، ولبسها الشيخ أبو بكر من سيدنا مولانا أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وعنهم، وعن الصحابة والآل أجمعين.

وكيفية أخذ الشيخ الهواري عن الصاحب أنه رأى في المنام رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه رضي الله عنهم فقال له: يا أبا بكر توجه إلى الصديق وبايعه وخذ العهد عليه، فقال: يا رسول الله أخذ العهد على السيد الكبير والبحر الخضم- يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هو أولى؟ فقال عليه أفضل الصلاة والسلام: الله ﷻ قدر في الأزل أن لا تأخذ العهد إلا من الصديق فعند ذلك توجه الهواري إلى الصديق وآخذ العهد عليه وألبسه الصديق التاج والخرقة بيده الكريمة، ثم إن الشيخ الهواري قام من النوم فرأى نفسه على هذه الحالة وعلى رأسه التاج وعلى صدره الخرقة، فحمد الله عن ذلك وشكره.

مَنْ سندُ الخرقة؟

واعلم أن تيجان سائر المشايخ وخرقها هي من الحسن البصري، وتاج الحسن البصري وخرقته من إمام العلوم علي كرم الله وجهه، فالسيد الكبير جمع بين الخرقتين العلوية والصديقية.

ونقل أن السيد أبا الوفا لما أخذ العهد على الشيخ أبي محمد الشنبكي كان وقت الظهر، فأذن المؤذن للظهر فقال الشيخ الكبير أبو محمد الشنبكي: يا مؤذن اصبر حتى يؤذن ديك العرش فصبر المؤذن مدة يسيرة، ثم قال الشيخ الكبير

أبو محمد: قم فأذن يا مؤذن فإن ديك العرش قد أذن، فقال له أبو الوفا يا سيدي أنت تنظر ديك العرش؟ قال: نعم، فقال: يا سيدي أريد أن أراه فقال له تعال يا أبا الوفا ضع رجليك على أصابع رجلي وضع يدك اليمنى على رأسي فوضع على ما قاله، ثم قال أبو محمد: بسم الله الرحمن الرحيم، وقال: قل يا أبا الوفا مثل ما أقول فتبعه وقال: فرأى ديك العرش مهيئًا جناحيه للتسبيح لله ﷻ، فقبل الشيخ عينيه وبايعه، وتاب على يديه عن مثل هذا السؤال، وكان المريدون يفتخرون بوجود هذا السيد الكبير، وكان الشيخ أبو محمد أيضًا يفتخر به وكان من أكابر محققي علوم الظاهر والباطن، وكان هاشمي النسب، وكان شيخ شيوخ وقته، وكان في الرياضة والمجاهدة في عصره لا قرين له ولا نظير، ولكن الله تعالى أعطى السيد أحمد الكبير من العطاء في طريق الكشف ما لم يعطه شيخًا من المشايخ المتقدمين.

ونقل أن الشيخ علي بن نجم الدين قد اشترط على كل أحد من مريديه إذا أراد أن يذكر اسم أبي الوفا المتقدم ذكره أن يقول قبل ذكره: بسم الله الرحمن الرحيم، وقال: إن أهل السماوات إذا أرادوا ذكر اسم أبي الوفا يأتون بالتسمية قبله تعظيمًا لشأنه وهو (يا عزيز).

ونقل أن بعض الصيادين ذهب للبحر وطرح شبكة فخرج فيها إنسان الماء وهو سمكة على صورة الآدمي فتعجب منه الصياد ثم إنه نطق وقال: يا صياد أطلقني لمحبتي لأبي الوفا فقال: وعزة جلال الله إن كل من في السبعة

أبحر يعرفون السيد أبا الوفا، وكلهم مريدوه وفيهم خلفاؤه ونقباؤه، ومن مريديه من العالم والخلائق ما لا يحصى ولا يعد.

فلما سمع الصياد منه ذلك أطلقه كرامة للشيخ مع ما هو عليه من الاحتياج والفاقة، ثم إنه ذهب إلى أبي الوفا وقص عليه القصة فقال السيد الكبير: نعم، كلامه صحيح، فتابعه ذلك الصياد وصار من كبير المريدين.

سؤال علماء بغداد له

نقل عن الشيخ أحمد كنز العارفين الزاهد أنه قال: لما طلع السيد الكبير إلى بغداد اجتمع عليه علماؤها وفضلاؤها وهيأوا له أسئلة كثيرة للامتحان وسألوه أسئلة مشكلة، منها: من أي شيء خلق الله ملكوت السماوات؟ قال: خلقه الله تعالى من النور، ولكن خلق أولاً من خالص نوره العرش، ومن نوره خمس ملائكة: جبريل وميكائيل وإسرافيل، وعزرائيل وإسماعيل عليهم الصلاة والسلام وخلق حملة العرش من نور حضرة القدس، وخلق الكرسي والعرش من نور المصطفى، وخلق ملائكة الملأ الأعلى من نوره، وخلق ملائكة الجنة من نوره، وخلق ملائكة الفردوس من نوره، وخلق ملائكة جنة عدن من نوره، وخلق ملائكة جنة المأوى من نوره، وخلق ملائكة السموات السبع من نوره، وخلق ملائكة تحت الثرى من نور العين، وخلق ملائكة الهواء من نور العين، وخلق ملائكة الاستخدام الذين يخدمون الخلق من نوره صلى الله عليه وسلم

وخلق الملائكة الكرام الكاتبين من نوره، وخلق ملائكة منكر ونكير من نوره وخلق البشير وملك الرعد من نوره، وخلق ملائكة الموت من نوره، وخلق الملائكة الذين هم من جنود ميكائيل من نوره، وخلق الملائكة الذين هم من جنود إسرافيل من نوره، وخلق الملائكة الذين نزلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا جنوده من نوره، ثم أن العلماء رضي الله عنهم سألوه فقالوا: يا سيدنا هل لحروف الهجاء حرمة تعظيم؟ قال السيد الكبير: لها ذلك وعزة الله تعالى لأن وجود حرف التهجي في الخلق محض خير وإحسان وفيها عزة عظيمة، فإن فيها علوم الأولين والآخرين وكلها مندرجة فيها، وسائر الكتب المنزلة والصحف كذلك معانيها مندرجة فيها ولا تعلم إلا معها جعلها كذلك وطوى فيها هذا السر العظيم والله أعلم.

فسالوه أيضًا: مم خلق الله تعالى نور محمد صلى الله عليه وسلم؟ فقال: خلقه الله تعالى من نور الألوهية، قال رسول الله ج: **(أنا من نور الله والمؤمنون من نوري)** وقال أيضًا: **(خلق إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام من نوره الأضحى)**.

فلما سمع القوم من السيد الكبير هذه العلوم وهذه الأجوبة المحررة، قالوا جميعًا: صدقت يا قطب العارفين ولقب بذلك بينهم.

ونقل أن سيدي أبا بكر الهوازني سأل الشيخ الزاهد كنز العارفين وكان سمعه يومًا يقول: أن أعرف المرشدين خمسة قال: فما أصل ذلك؟ فقال: يا أبا

بكر إن الله تعالى قال في القرآن الحكيم: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ (الأحزاب:٧) ونزل في شأن الصحابة الخمسة قوله تعالى: ﴿ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ (آل عمران:١٧) فكذلك سادات الشيوخ والمرشدين خمسة أولهم سيدي أحمد الرفاعي وثانيهم أبو يزيد البسطامي، والثالث أبو عاصم المعروف بالكرخي، والرابع أبو القاسم الجنيد البغدادي، والخامس الغوث أحمد بن خلف البلخي، وهؤلاء هم أبدال الأنبياء وأقطاب أمة محمد صلوات الله وسلامه عليه.

وكان كلما أراد أن يتوجه إلى موضع يذهب معه من الدواب المراكيب العدد الكثير، ومع ذلك يروح ويغدو ماشيًا وقد سخر الله له الأرض وطواها له، فلو أراد أن يقطع مسافة مائة عام منها بخطوة أو بطرفة عين لفعل، وهو يعرف سائر لسان الطيور مثل سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام، وكان إذا وضع رجله على الأرض وفي تلك الأرض دفين يناديه الدفين من تحت رجليه ويعلمه بحاله، وكان السيد الكبير رضي الله تعالى عنه يضرب الأرض برجله ويقول: الدنيا ملعون ما فيها.

تبشير النبي صلى الله عليه وسلم بولادته

وصح أن الشيخ منصور الرباني رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وهو يقول له: يا منصور أبشرك أن الله تعالى يعطي أختك في أربعين يومًا ولدًا ويكون اسمه أحمد الرفاعي، ومثل ما أنا رأس الأنبياء كذلك هو رأس الأولياء، وحين يكبر فخذه واذهب به إلى الشيخ علي القاري الواسطي، وأعطه له كي يربيه، لأن ذلك الرجل عزيز عند الله ولا تغفل عنه.

فقلت: الأمر أمرك يا رسول الله عليك الصلاة والسلام، وكان الأمر كما ذكر رسول الله صلة الله عليه وسلم.

رؤياه ليلة القدر

ونقل أن سيدي السيد الصالح بن السيد الكبير قال: سألت أبي: هل رأيت ليلة القدر؟ فقال لي: نعم، رأيتها في السابع عشر من رمضان، واعلم أن المفسرين اختلفوا في ليلة القدر فقال ابن عباس: إنها ليلة السابع والعشرين، فقال سيدي صالح لأبيه: يا سيدي مرادي أنظر ليلة القدر فقال السيد: إن أردت ذلك فانظر إلى السماء، قال: فنظرت إلى السماء وإذا أبوابها مفتوحة فنظرت عرش الرحمن، فرميت بنفسي على قدم والدي السيد الكبير وتفزعت.

فقال لي: يا ولدي اجتهد فإنك تقرب إلى الحق وتصل إليه، وكلما اكتسب العبد التقرب إلى الله وأراد العروج إليه والوصول فإنه يصل إليه بإذن الله تعالى وتعتبر كل ساعة من ساعاته كليلة القدر.

وقد اتفق أعيان السلف من أهل الحذق، على أن الشيخ عبد القادر الجيلي وأبا السعود بن الشبل البغدادي ومجرد الأكبر وعماد الدين الزنجي وعلي بن نعيم، ويعقوب الكرازي وناصر منبع الرحمة، وحاتم الزابراني وإبراهيم الصديق الكازروني رضي الله تعالى عنهم أجمعين الذين كلهم من أكابر الأولياء قد وصلوا فنظروا ليلة القدر ببركة السيد أحمد الرفاعي.

سجاياه مع المريدين والضعفاء

ومما نقل في حسن شفقته على عباد الله تعالى أنه كان في أعلى طبقات الشفقة والحنان على الفقراء والمساكين ما نقل الشيخ تقي الدين الواسطي في كتابه، المسمى بـ **(ترياق المحبين)** أنه كان إذا قدم عليه المسافر من المحبين والأصحاب رحب بهم وأحضر الطعام ولاطفهم فوق الوصف.

وكان على كمال الاستغناء عن الدنيا ولا أحب شيئًا منها مدة عمره، وكان يقول: يا فقراء اعلموا أن في أطراف الإنسان عرقًا متصلاً بالقلب فمتى ما اعتاد الإنسان قبض الدنيا بيده وكفه تعلق قلبه بها فإذا أراد أن يقطع ذلك

التعلق يعسر عليه ذاك ويصعب قال صلى الله عليه وسلم: **(حب الدنيا رأس كل خطيئة)**.

وكان إذا التقى مع أحد لاقاه بالوجه الحسن، وكان مع الأيتام في مقام الوالد وكان يتقيد بالنساء الأرامل ويخدمهن، وكان يميل إلى طائفة المساكين، وكان حسن العشرة مع سائر عباد الله.

وكان حليمًا إلى الغاية، وكان عظيم التواضع، وكان لا يغضب من أحبابه ولا من أصحابه أبدًا وكان كتامًا للأسرار فإذا أسر إليه أحد سرًا لا يظهره إلى أحد أبدًا، وكان إذا طلب أحد من عباد الله منه دعاء دعا له بالخير وحسن الخاتمة، وكان إذا علم أن أحدًا غضب منه يستعطف خاطره وإذا تعدى عليه أحد عفا عنه وسامحه ولا يظهر له غيظًا ولا يبدي لأحد وجه غيظ وعبوسة، وكان كل من عمل معه سوءًا وضررًا جازاه بالإحسان عملاً بقوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ (الإسراء:٧) وكان يقول للفقراء: يا فقراء اعلموا أن كل من يعمل منكم سوءًا يكون عاصيًا بعيدًا من الله، ومن يعمل حسنة يكن تائبًا وقريبًا من الله، ويكون من أهل دولة الآخرة، وكان يطعم الفقراء ويلبس العرايا، ويعود الضعفاء والمرضى، ويحمل الجنازة، وكان إذا رأى الكبير والصغير يسلم عليه، ويفشي السلام، ويعود المرضى ويقضي حوائجهم، وكان كثيرًا ما يجلس معهم ويطيل جلوسه معهم، ويأخذ بخواطرهم ويلتمس منهم الدعاء وكان يقول أحب صحبة هؤلاء الطائفة، وكان

إذا رأى أعمى يسأله عن الطريق يقول له أي مكان تريد، حتى أوصلك إليه؟ وكان يتردد على أبواب المساكين ويستخبرهم عن حوائجهم ومصالحهم، ويقضيها لهم وكان يتوخى رضاء خواطر الفقراء.

وكان يملأ بالقرب ويحملها على ظهره وعلى كتفه ويوصلها إلى منازل النساء والأرامل، وكان يذهب إلى المحطبة ويقطع منها الحطب، ويوصله بنفسه إلى بيوتهن، ولما رأى الفقراء معه هذا الخلق الحسن امتدوا وصاروا يحملون الحطب من المحطبة، والماء من البحر ويوصلونه إلى بيوت المساكين، وكان بعضهم يبيع الحطب ويشتري به خبزًا ويعطيه للفقراء ومن كثرة ما كانوا يفعلون ذلك ترك أهل أم عبيدة شراء الحطب من الحطابين، وكان أهل أم عبيدة يقولون: رجلٌ بعشرة آلاف رجلٍ يريدون بذلك السيد الكبير، وكان يقول لأهل أم عبيدة حين يسألهم في أنه يقضي لهم حوائجهم قال صلى الله عليه وسلم: **(كل من قضى لأخيه حاجة كتب الله له في ديوان الحسنات مائة ألف حسنة، ومحا عنه مائة ألف سيئة، ورفع له مائة ألف درجة، ويطعمه الله من طعام الجنة).**

وكان كثيرًا ما يقصد الوقوف على قارعة الطريق من أجل أنه إذا وقع بين اثنين أو جماعة خصومة أصلح ذات بينهم وينصحهم ويأمرهم بالصلح والصفح، وكان ينظف المساجد ويكنسها بيده، وكان يفرح لفرح الناس ويرغب الخلق في فعل الخيرات، ويعلمهم مكارم الأخلاق وكان ضحكه تبسمًا من غير قهقهة.

وكان يقبل ممن اعتذر عذره، وكان إذا حصل عنده غم من شيء، كتمه ولا يظهره مخافة على جليسه، وكان كثيرًا ما يخرج من فمه رائحة الكبد المحروق، وكان إذا مشى في طريق لا يلتفت لا يمينًا ولا شمالاً، وإنما كان ينظر إلى مواضع أقدامه، وكان إذا تكلم يتفكر قبل أن يتكلم في عاقبة الكلام وآخرته.

وكان يقول: إن الله تعالى أوحى إلى داود ،عليه السلام إذا ذكرت ساعة شيئًا لا ينفعك إلا ما ذكرتني به وعبدتني به، وأما الساعة التي لا يكون فيها شيء من ذلك فهي ضائعة، وكان يصرف جميع أوقاته وساعاته في العبادات والخير وذكر الحق تعالى، والشيء الذي يعرف أنه يشغله عن الحق لا يشتغل به ولا يتقيد به، وكان إذا فاته شيء من العبادات يبكي بكاءً شديدًا ويقول: يا ليتني مت ولا فاتتني هذه المواقف العزيزة النفيسة من غير أن أشغلها بعبادة، ويتأسف كثيرًا رضي الله عنه وينشد هذه الأبيات:

يـــا أيهـــا المعـــدود أنفاســـه لابـــد يومًـــا أن يـــتم العـــدد

لابـــد مـــن يـــوم بـــلا ليلـــة وليلـــة تـــأتي بـــلا يـــوم غـــد

وكان إذا حضرت الصلاة لا يقدم شيئًا من أمر الدنيا في يوم من الأيام، واتفق يومًا من الأيام أنه عطش فطلب أن يشرب فأذن المؤذن فقال: أمر الصلاة أوجب وأحق بالتقديم على كل شيء، فترك الشرب واشتغل بها، وقال:

إن شرب الماء من حظوظ النفس وشهواتها والصلوات من شيءون الذات العلية واعتباراتها، ثم قرأ قوله تعالـــى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ (الإسراء: ٨١).

الأصول الأخلاقية لطريقه

وكان ﷺ إذا شرع في الصلاة يصفر لونه الشريف وإذا فرغ من صلاة الصبح يستمر في مكانه جالسًا بالذلة والمسكنة يقرأ الأوراد إلى صحوة النهار العالية، وإذا فرغ من ذلك صلى صلاة الإشراق وصلاة الضحى، ثم يتوجه إلى أم عبيدة ويجاهد نفسه الغيورة الكريمة على العبادة، وكان يقول: إذا كنت في الخلوة يحصل عندي التأسف والتحسر كثيرًا.

وكان دائمًا يرى في الخلوة واقفًا على قدميه ويجاهد نفسه وينشد هذا البيت ويقول:

والله لو علمت روحي بمن علقـت قامت على رأسها فضلاً عن القـدم

وكان إذا تاب على يديه العصاة يفرح ويظهر البشاشة، ويشكر الله ﷻ ويدعو لذلك التائب ويوصيه بالدوام على الفروض والطهارة.

وكان يأخذ العهد على الأطفال، ويتوبهم ويقول للطفل منهم: يا طفل اجعل الله شاهدًا عليك، حتى تكون على عهدك، فسأله الفقراء: عن حكمة ذلك

وسببه، وقالوا له: الأطفال ليسوا من أهل الذنوب حتى تتوبهم، فقال: ليس مرادي من أخذ العهد عليهم التوبة وإنما أذكرهم العهد القديم الذي أخذه عليهم ربهم، وقرأ قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ (الأعراف:١٧٢).

وقال: من علامات التوبة أن يفارق العبد التائب أهل الجهل، ويلازم أهل المعرفة والحق ويداوم على الطهارة، وكان يرغب الناس في المحافظة على الوضوء حضرًا وسفرًا وإذا دخل إلى مسجد من المساجد يجلس حتى يصلي ركعتين تحية ذلك المسجد عند دخوله[١].

وكان كل من رآه من الفقراء يفعل مثل ما يفعل من إزالة النجاسة يدعو له بالخير وأن يحسن الله خاتمته، وكان إذا جاءته هدية ولو تمرة واحدة يعظم شأنها، وإذا أراد أحد أن يحمل نعله ما كان يمكنه من ذلك، وكان يحمله بنفسه.

وفي مدة عمره ما أمر الفقراء بفعل شيء له، ولا استخدمهم فيه، وما كان لأحد من الفقراء طاقة على أن يشتغل بحضرته بشيء سوى أعمال الفروض، وأعمال السنة.

وقد كان ﷺ يعظم القبلة المحمدية وجهتها فما رآه أحد يدير ظهره إليها أو يستدبرها، وكان دائمًا إذا قام وقعد يذكر الله.

---

(١) وهكذا يتمسك مشايخ الطرق بأحكام الشرع الشريف وسنة النبي الكريم.

وظل طول عمره ما اشتكى أحدًا من الناس إلى حاكم.

وكان يقول: الميل إلى الحكام يستبعد العبد من الله، والرجوع إليهم كالرجوع إلى النار، وكان يستدل على ذلك ويتمثل بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ (هود:١١٣).

وكان إذا ترك أحد من الفقراء الصلاة يتفقده ويسأل عنه هل كان ذلك لمرض فيعوده ويسلم عليه بنفسه، أو يرسل أحدًا يعرفه، أو كان لمصلحة أخرى شغلته عنها فيسأله فيرجع عن ضرورته التي شغلته، وكان أول ما يرغب الفقير في الصلاة(١).

وكان عند تناول الطعام يقول: نحن ما جئنا لأجل هذا إنما جئنا لأن نعرف الله تعالى، ويقول: يا فقراء طيب الأكل والشرب لأجل تقوي البدن على الصلاة، والعبادات مطلوب، محبوب فاطلبوه بهذه النية الحسنة، ولا تطلبوه بنية التلذذ وإبلاغ النفس شهوتها فإن ذلك مذموم، وكان ينهى من سافر عن صحبة الطعام، وينهى عن الشبع وملء الجوف بالطعام ويقول: يتولد منه الأمراض والآفات المذمومة للقوى والصحة.

وكان إذا وضعت السفرة بين يديه يأكل متعجبًا مقهورًا.

---

(١) وهذه كانت عادة النبي صلى الله عليه وسلم.

وكان يقول: أي طريق أقرب إلى الله تعالى من طريق الجوع والعطش؟

وكان يقول: إن صفاء القلب والبصيرة ونفاذ البصر وقوته يكون من قلة الشبع بالطعام والشراب والجوع يزيل الكبر والتعاظم والتجبر وبه تعذيب النفس حتى تصير مشاهدة للحق، وما رأينا شيئًا يكسر النفس مثل الجوع قط، وأما الشبع فيولد قساوة القلب وظلمته، وعدم نفاذ البصيرة، قال الإمام علي كرم الله وجهه ورضي عنه: لما أن أشبع بالطعام ينحرف المزاج مني والنفس عن أمر الحق.

وكان من عاداته إذا رأى لقيمات ولبابًا ونحو ذلك وقعت بالأرض يلتقطها ويأكلها.

وكان إذا أكل الضيوف والفقراء الطعام يحضر لهم الماء ويصبه بنفسه على أيديهم ليغسلوا.

وكان إذا أراد أن يأكل الطعام فقبل أن يأكل يتفقد جيرانه ويرسل إليهم حصصهم منه ثم يأكل، وكان يعتني بشأنهم غاية الاعتناء، ويخدمهم غاية الخدمة ويقول: كان دأب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعادته رعاية جيرانه جبرًا لهم، وكان يقول رعاية خواطر الجيران أولى من رعاية خواطر الأقارب، لأن هؤلاء خواطرهم مكسورة بعدم القرابة وتلك مجبورة بها، وقال عليه الصلاة والسلام: أوصى جبريل على الجيران غاية الوصية حتى ظننت أنه

يريد أن يورث الجار من الجار[١]. وفي الحديث أيضًا: **(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره)**[٢].

وروي أن رجلاً دعا السيد الكبير يومًا إلى ضيافة، فقال له: كيف أروح إلى ضيافة وجيراني محتاجون؟

وكان ليس له من الخرق التي يلبسها الفقراء إلا خرقة واحدة، وكان إذا جدد واحدة أعطى القديمة إلى فقير من الفقراء، وكان إذا تناول الخبز يقول قبل وضعه في فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، وكان إذا أراد قص أظافره يبدأ منها بسبابته اليمنى، ويختم بإبهامها، وكان يميل إلى صحبة الصلحاء، والعارفين، ويبعد عن صحبة الطلحاء والجاهلين، وكان يحرض الخلق ويحثهم على طلب العلم.

وكان إذا دخل بأحد من الفقراء بلاء أو مرض يتقيد بخدمته ومداواته إلى أن يعافيه الله ويشفيه، وكان يقول للفقراء: اطلبوا من الله الإعانة على نفوسكم حتى تغلبوها ويظفركم عليها.

---

(١) الحديث رواه الإمام البخاري ومسلم.

(٢) الحديث رواه الإمام مسلم.

وكان يرغب في الذلة والمسكنة وعدم الاهتمام والاعتناء بأمور الدنيا، وكان يقول تقيدوا بأشغالكم حتى تشتغلوا عن الخلق وأحوالها اشتغلوا بما يكون لكم فيه الفائدة الدنيوية والأخروية(١).

وكان يأمر الفقراء بطعام الليل ومداومة خدمة الوالدين، وتعظيمهم وإجلالهم، وكان يقول: إن قدرتم أعطوا الصدقة فإنها تبرد النار وتزيل غضب الله، والإحسان للوالدين وبرهم يهون سكرات الموت.

وكان يقول: معاملة عباد الله توصل إلى الله، وكان يأمر بالمداومة على الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقول: إن الصلاة عليه تسهل المرور على الصراط وتجعل الدعاء مستجابًا.

كان يأمر الفقراء بتجديد الوضوء ويقول: إذا حصل وسواس أو زادت الوسوسة فليجدد الوضوء، ويستقبل الصلاة.

وكان يوصي النساء على أزواجهن وأن يكن في رضائهم، ويقول لهن إن رضاء الله في رضائهم، ولا تخالفوهم فإن غضب الله في مخالفتهم.

وكان إذا سمع كذبًا أو غيبة من أحد ينفر منه، وكان ينهى الفقراء عن زيادة الكلام وكثرة أكل الطعام، وكان يمنعهم من صحبة الأشرار، والظلمة،

---

(١) وهكذا يكون المسلم عاملاً في أعمال الدنيا جادًا في طلب الرزق الحلال حتى لا يترك العمل ويصبح عالة على غيره، ويدعي التصوف والزهد في الدنيا.

وما كان يلتفت إلى المزاح والخراط ولا يعمله، وينهى الفقراء عنه ويقول لهم: إن المزاح يتولد عنه البغض والحسد والعداوة، وكان إذا رأى الفقراء على خصلة حميدة يدعو لهم ويؤكد عليها وإذا رآهم على خلافها يمنعهم ويقول لهم: كل شيء أراده الله يكون ولابد، وكان يقول لهم: إذا رأيتم التمر تحت النخيل واقعًا مطروحًا على الأرض فلا تأخذوا منه شيئًا حتى يأذن لكم أصحابه[١].

وسمع ﷺ يومًا صوت فقير ينادي آخر وهو يقول: يا فلان بدون ابن فلان فاغتاظ من ذلك الفقير المنادى وكان ممن يخدمه فعزله من خدمته، وقال: من الأدب أن تتنادوا بآبائكم، فيقول أحدهم إذا أراد أن ينادي صاحبه: يا ابن فلان، لا يا فلان، وكان على جانب كبير من سلوك طريق الحق والمواظبة عليه فلا يترك دقيقة من الأدب الشرعي أبدًا.

وكان إذا رأى من أحد فعلاً قبيحًا يقول له: لا يؤاخذكم الله، وفي مدة عمره ما تشوش من أحد لحظ نفسه، ولا تألم من ذلك.

وإذا غضب ما كان يغضب إلا لله لا لنفسه، وكانت الفائدة عنده في الدنيا والخسارة على حد سواء.

وسمع يومًا جماعة يحلفون بأهل بيت رسول الله ج فنهاهم عن الحلف بذلك وقال لهم: إن الحلف بأهل بيت رسول الله كذبًا يأتي بالهلاك والنكال، وإذا

---

(١) وهكذا شأن المؤمن أن يتحرى أكل الحلال الطيب ولا يأكل ما فيه شبهة.

حلفتم ولابد فاحلفوا بي فأنا أسامحكم وأعفو عنكم، وإذا حلفتم بهم صادقين فلا يضركم ذلك(١) وكان يعظمهم ويراعيهم غاية المراعاة، وإذا حضر أحد منهم إليه بحلة يتلو هذه الآية: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ (الأحزاب:٣٣)، والآية الأخرى: ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ (الشورى:٢٣).

وقيل له: أنت اليوم سيد أهل البيت فلم تتواضع لهم هذا التواضع؟ فقال: أقوم بما علي.

وروي عن الشيخ فارس رحمه الله تعالى أنه قال: كنت يومًا حاضرًا في مجلس الذكر وإذا بالمنشد ينشد للفقراء في أثناء الذكر، فمضت مدة وهو بالمجلس ولم يحصل للفقراء وجد ولا سماع ولا طرب فجلس السيد الكبير على ركبتيه وتأوه بصوت عالٍ، وتفجر ثم عاد إلى مكانه، وحاله الأول واشتغل بالمراقبة إلى أن تم المجلس، فأتاه بعض الأحباء ممن له عليه الاستدلال وأقدم بالسؤال وسأله عن سبب التأوه الذي صدر بالمجلس والفقراء مشتغلون بالذكر، فقال: يا هذا، إن الله تبارك وتعالى وهب لي أحسن مواهبه وأنا كذلك وهبت ذلك إلى الفقراء، وبقي بعض شيء منه ما حرم منه إلا من كان ينقص أبا بكر،

---

(١) لقد نهى رسول الله عن الحلف بغير الله، لأن الحلف تعظيم وهو لا يكون إلا لله وحده.

وعمر الفاروق رضي الله عنهما، ورجل يدخل بين الفقراء ويفسدهم، وهذا الشيء الموهوب هو الوجد والسماع.

ونقل عنه أنه جاء يومًا إلى جهة الرواق فسمع جماعة من الفقراء يضحكون ويعلون أصواتهم بالقهقهة، فأرسل الخادم لهم، وقال له: قل لهم أن كنتم اقتديتم بأحمد الرفاعي في الأفعال والأقوال فإن أحمد الرفاعي لا يضحك مثل هذا الضحك (١). وهل رأيتموه يفعل مثل ذلك؟ فإن كنتم رأيتموه يفعل ذلك فافعلوا، وإن لم تروه فهو لا يرضيه أنكم تتقيدون باللعب والهراء، وإن تقيدتم بهذا المعنى فاعلموا أنكم تشتغلون عن الحق فيبعدكم عنه، وإذا أراد الفقير أن يحصل مطلبه ومراده فلينظر إلى أستاذه وطريقه فكل شيء فعله يفعله، وألا يكون بعيدًا عن طلب مراده وحصوله.

ونقل أن بعض الناس المغتابين تكلموا في حضرة السبد الكبير في حق سيدي صالح وسيدي إبراهيم وسيدي محمد الإمام فلما سمع ذلك قام من المجلس ونفر عنهم، وقال: ما هذه الأحوال؟ لا ينبغي للعبد التقيد إلا بما فيه فائدة وليس فيه ضرر ولا يلحق به مؤاخذة من الله ورسوله، والغيبة عند الله خطأ كبير.

---

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلوب).

ونقل أن السيد الكبير أحمد الرفاعي، قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح باب الإرشاد وسلمه إليَّ ولقد قال صلى الله عليه وسلم: **(إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها)**(١). ثم قال: واليوم ظهور دولة الرفاعية وطريقها المرتضوية العلوية على مشرعها ابن عبد الله الصلاة والسلام،وانتقال هذه السلسلة إلى أظهر من الشمس والحمد لله رب العالمين.

فصلٌ في بيان نسبه رضي الله عنه

هو السيد أحمد الرفاعي بن أبي الحسن علي بن يحيى، بن ثابت، بن حازم، بن علي، بن الحسن، بن رفاعة المكي، بن المهدي، بن محمد بن أبي القاسم، بن الحسن، بن الحسين، بن أحمد الأكبر، بن موسى الثاني، بن إبراهيم المرتضى بن الإمام موسى الكاظم، بن الإمام جعفر الصادق، بن الإمام محمد الباقر، بن الإمام زين العابدين بن الإمام الحسين الشهيد بكربلاء، بن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم أجمعين، فقد جاء السيد الكريم من هذه الأصلاب الطاهرة الشريفة إلى الوجود، ونشر على بساط الخضراء إرشاده، وعطر الله بعطر فضله أرجاء بلاده.

---

(١) الحديث رواه السيوطي في الجامع الكبير والصغير عن أبي هريرة وقال: رواه الحاكم وأبو داود.

قال شيخنا عز الدين أحمد الفاروني في (**النفخة المسكية**) بعد مقدمتها: فليعلم أن رأس هذه العصابة الرفاعية ودوحة هذه الذرية الأحمدية شيخ المشايخ الجبل الراسخ، صاحب المناقب العظيمة، والمآثر الكريمة، تاج أهل القبول المشرف بتقبيل بعد الرسول، أبي العلمين غوث الثقلين من تبينت كراماته بالتواتر في المشرقين والمغربين، الخاشع الخاضع، والشريف المتواضع ملجأنا ومفزعنا وشيخنا السيد الشيخ أحمد أبو العباس الكبير الرفاعي الحسيني ﷺ.

عرض حياته

ولد ﷺ في أم عبيدة في دار جده شيخ شيوخ زمانه سيدنا الشيخ أبي سعيد يحيى النجاري الأنصاري، وذلك في سنة اثني عشر وخمسمائة من صلب شيخ القراء والمحدثين سلطان الزاهدين إمام العارفين، السيد علي أبي الحسن بن يحيى المكي ويقال له المغربي، ويحيى هذا أول قادم من هذه العصابة إلى العراق، وصل البصرة في عام خمسين وأربعمائة واشتهر فيها بالزهد والمعرفة والصلاح وعكفت عليه القلوب.

ثم بعد مدة تزوج بالأصيلة الحسيبة الأنصارية بنت المولى الجليل الحسن أبي سعيد النجاري والد الشيخ أبي سعيد النجاري، فأولدها سيدنا السيد علي أبا الحسن والد السيد أحمد الكبير رضي الله عنهم.

فلما كبر قدم للبطائح وسكن أم عبيدة وتزوج بنت خاله الست فاطمة بنت الشيخ الإمام يحيى النجاري، فأولدها سيدنا السيد أحمد الكبير والسيد عثمان، والسيد إسماعيل، والسيدة ست النسب، فالسيد عثمان والسيد إسماعيل تزوجا وأعقبا السيد مبارك وأولادهم.

أما السيدة ست النسب فقد تزوجت بابن عمها السيد سيف الدين عثمان، ابن السيد حسن السيد الحازم الحسيني الرفاعي، وأن السيد حسن والد السيد سيف الدين عثمان هذا قدم إلى العراق صغيرًا دون البلوغ مع ابن عمه السيد يحيى نزيل البصرة ابن السيد الثابت بن السيد الحازم الحسيني الرفاعي فرباه ابن عمه السيد يحيى وأرشده وأقرأه علوم الدين.

ثم لما استوى زوجه بنت الشيخ الإمام أبي الفضل، فأولدها السيد سيف الدين عثمان المتقدم ذكره، فلما بلغ أشده تزوج كما ذكرنا بنت ابن عمه الشريفة ست النسب أخت سيدنا السيد أحمد الكبير فأولدها السيد علي والسيد عبد الرحيم والسيدة ست الكرام.

وأما السيدة ست الكرام فإنها تزوجت رجلاً يقال له محمد بن حرثا، وكان من أكابر أركان البيوت العلماء على القدر، محفوظ الحرمة جليل المكانة، فأولدها سيدي أحمد ويعرف بابن ست الكرام، وقد غلب اسم أمه على اسم أبيه، لأن أباه لم يكن من أهل البيت رضي الله عنهم، وأعقبت سيدي أحمد من ست

الكرام بنتًا سماها عائشة تزوج بها السيد نجم الدين ولم يعش لسيدي أحمد غيرها، وأعقب ست الكرام بنتًا اسمها صفية ولها ذرية صالحة.

تنبيهٌ

ولما كان ذرية السيد عبد الرحيم والسيد علي ولدي السيد سيف الدين عثمان بن الرفاعي من بنت خالهما، وابن عم أبيهما سيد العارفين شيخنا السيد أحمد أبي العلمين ﷺ: استحسن أولا ذكر نسبة السيد أحمد إلى جده رسول الله صلى الله عليه وسلم وكيفية اتصال هذا الفرع الكريم بذلك الأصل العظيم، وقد تقدم أن السيد أحمد بن السيد أبي الحسن علي بن يحيى، ويحيى هذا ابن الثابت ابن الحازم بن أحمد المعروف بابن رفاعة الهاشمي المكي بن الحسن الملقب برفاعة وإليه ينتمي بطن بني رفاعة هؤلاء، كما ذكره صاحب الترياق مفتي الثقلين تقي الدين بن عبد المنعم الواسطي والحسن بن رفاعة المكي، المذكور هو نزيل المغرب، هاجر من مكة إلى المغرب سنة سبع عشرة وثلاثمائة وهي السنة التي قتل فيها ابن محلب أمير مكة وأصحابه، وحصل ما حصل من القرمطي عليه اللعنة في بيت الله من الهدم والنهب والقتل، وفي هذه السنة هاجر كثير من الأشراف إلى البلاد السائرة، وكان ممن هاجر بأهله بني عمر إلى اليمن محمد بن عيسى من آل علي العريض الحسيني، ومنهم من هاجر إلى نيسابور والعجم والهند، والتحق رفاعة بقبيلة من قبائل العرب بالقرب من أشبيلية وعظمه ملوك المغرب، وانقاد إليه أعيانها وعلماؤها وكبر أمره واشتهر

ذكره، وبقيت ذريته في المغرب إلى عهد السيد يحيى بن الثابت جد سيدنا السيد أحمد، قال في **(الترياق)**: ولهم بقية في المغرب، وإن رفاعة الحسن المكي هذا ابن المهدي بن أبي القاسم محمد بن الحسن بن الحسين، بن أحمد بن موسى الثاني ويقال له: الأصغر، بن إبراهيم المرتضى، بن الإمام علم الإسلام موسى الكاظم بن الإمام جعفر الصادق بن الإمام الهمام محمد الباقر، بن الإمام الهمام زين العابدين على الأصغر المعروف بالسجادة ابن الإمام المقدم الشهيد السيد السبط الأعظم أبي عبد الله الحسين الشهيد بكربلاء ابن الإمام الأعظم، مقتدى العرب والعجم، الهزبر الغالب باب مدينة العلوم أسد الله علي بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه، من زوجته الطاهرة البتول سيدة النساء فاطمة الزهراء رضي الله عنها، وعليها السلام، بنت سيد المرسلين وأفضل المخلوقين وأشرف العالمين، أبي القاسم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

ومن المعلوم أن رجال هذا النسب الطاهر أعيان الخلق في الباطن والظاهر، والأول والآخر.

وإن النبي صلى الله عليه وسلم واسطة عقد هذا النسب وجوهر قلادة هذا الحسب، وماذا عسى يقول فيه القائل بعد قول أحسن الخالقين: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ صلى الله عليه وسلم.

وإن من تسلسل في هذه النسبة من الآل الكرام، والأشراف الأئمة الأعلام هم مصابيح الهداية وشموس الوصلة والولاية.

وإن العقد الواسطي في هذه السلسلة المبجلة الكبرى شيخنا السيد أحمد الكبير الرفاعي الحسيني وفي عظم المقام، ثابت القدم باتباع جده عليه الصلاة والسلام، ملأت شهرته العراق، وولع نوره في الآفاق.

قال شيخ أساتذتنا الشيخ مكي الواسطي: نمت مع السيد أحمد الرفاعي ليلة في أم عبيدة فأحصيت له أربعين خصلة من خصال المصطفى صلى الله عليه وسلم وهذا الذي أدركته من ظاهر أحواله فكيف بباطنها؟

هيهات أن يأتي الزمان بمثله، أن الزمان بمثله لبخيل وشهرته بالسيادة النسبية والوصلة النبوية اتفق عليها خاصة المسلمين وعامتهم على الغالب في المشارق والمغارب ورحم الله شيخنا المقدام الخطيب الأدفوي فإنه قال في هذا المعنى:

بنسبة أحمـــد المـــولى الرفـــاعي لطـــه وصـــلة عظمـــت مقامـــا

ســـرى برهانهـــا شـــرقًا وغربًـــا وســـار معطـــرًا يمنًـــا ويـــسرا

وروى الوالد عن أبيه شيخ الشيوخ مولانا عمر الفاروني رضي الله عنه أنه قال: لرجل سأله عن نسب سيدنا السيد أحمد الرفاعي فقال:

تلألأ في بنـــي الزهـــراء شـــمس فهل يُبغَى علـــى الـــشمس الـــدليلا

ومثل ذلك نقل ولي الله الشيخ إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الكازروني الصديقي الفيروزآبادي عم العلامة صاحب **(القاموس)** الشهير الحاج حسام في كتابه **(شفاء الأسقام)** وقصة الشيخ إبراهيم هذا أنه ما تمكن من السيد الكبير وأخذ العهد منه والانتساب إليه إلا بعد التوسل والتعب الشديد، وحين قدم إلى حضرته كاشفه على شأنه ابتداء ﷺ. وقد صنف الشيخ إبراهيم كتابًا بلسان الفارسية، وسماه **(شفاء الأسقام في سيرة غوث الأنام)**، وهو ما بين القوم معلوم ومشهور، موضوع هذا الكتاب أنه ذكر أوصاف السيد ومآثره ونسبه ومناقبه، وقد جاء به إليه فوجده قد انتقل بالوفاة إلى رحمة الله، فزار ضريح السيد وسأله من الله الدعاء، روى فيه بعض نصائحه ﷺ.

من فوائـــد أقوالـــه

اغتنام الخير

منها قوله: إن السيد الكبير قال: إذا كان لأحد داعية إلى شغل يفعله فلا يفعل إلا ما فيه الخير، ويوصله إلى طريقه ويعود نفسه على الأعمال الحسنة والائتلاف بها، ولا يرى فعل خير ويقصر في إتيانه وفعله، ولا يقول لنفسه غدًا بعد موتك يفعل لأجلك الخيرات والحسنات، فهيهات فإنه لا ينفع الحر إلا ما قدمت يداه، ولو كان ميراث المرء لأهله مثل الجبال.

متى يقبل نصح الواعظ

ومما ينبغي: أن يجعل المرء نفسه مصدرًا للنصائح والمواعظ، ويكون ملتبسًا بأفعال المعروف ممتثلاً الأوامر مجتنبًا النواهي، واقفًا مع الحق وطريق الشرع حتى إذا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر قبل منه وامتثل له، وكان لأمره تأثير في النفس المأمورة والمنهية، وإلا فلا يقبل منه ذلك ولا يسمع ما يقول وكان من العظيم عليه، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ ﴾ (الصف:٢-٣) ولهذا كانت قلوب الصالحين مهبط الوحي وأنوار الألوهية وكانت تطلع على المغيبات، وإن لم يكن القلب منورًا بنور العبادة والطاعة وأفعال الخيرات كان مهبط الشيطان، ويلقى صاحبه في ظلم الباطل، ويجر إلى الشقاوة، فنعوذ بالله من ذلك.

التصوف الحق

وقال ﷺ: الفقر والتصوف مبنيان على خصال متعددة منها أن يتجرد العبد لله تعالى ويعلم الله علمًا يقينيًا، ويقول بالواحدانية في أفعاله وصفاته، وذاته، وأن ليس كمثله شيء ،ﷻ، فإن من علم الحق بهذا العلم خرج من باب العلم الظني، ومن باب الوهم والشكوك، وخلع من عنقه ربقة التقليد، وأن يسلك طريق الإيثار، ومعنى الإيثار عندهم أن العبد إذا فعل حسنا لا يشهد أن له في ذلك اختيار ولا إرادة، حتى يشهد بذلك أنه يستوجب على الله ويستحق له ثوابًا

عليه، لأن العبد وفعله كله ملك لمالك ومبدع الوجود، والعبد لا يستحق له على سيده ومالكه شيء تعالى الله عن ذلك.

وأن يكون في وقت السماع والوجد مجتهدًا فيه سابقًا غيره إليه ليس بقلبه وخاطره غير ربه، ويكون قلبه حاضرًا في مقام الحضور والمراقبة والشهود حتى ينكشف له باب الكشف ويرتفع عنه ظلام الحجب، وأن يكون في أكثر أوقاته ساكنًا وأن يترك الحيلة والاكتساب وادخار الذخيرة، وألا يسلك غير طريق الصدق، فلا يجعل حركاته، وسكناته، إلا مبنية عليه، وأن لا يكثر كلامه خشية أن يقع في الخطأ والكذب، وأن يجتنب أكل الحرام، وأن لا يطلب ما ليس له قدرة على أن يكون في يده ولا يلتفت إليه، ويلتفت لما هو الأهم من أمور آخرته ومعاده، وأن لا يحرص على ما هو في يده يمسكه، بل يصرفه في استحقاقه ويبذله فإن المدبر الحق ﷻ، وأن لا يلتجئ في أموره لأحد غير الله تعالى.

شرط الفقير الصادق

وقال: شرط الفقير أنه لا يعلق نظره بشيءون الخلق وغيرها فإنه إن علقه بذلك التبس عليه الأمر، وكلما اختلط الفقير بالخلق ظهرت عيوبه.

وقال: إن قلب الفقير كالمرآة فكل شيء ينظره، يراه في وجوده من أمور الدنيا مرتسمًا، وإذا اختلط بالخلق ونظر لما في أيديهم وملابسهم صدئت مرآته فلا ينبغي له أن يخطر بباله شيء من أمور الدنيا.

وقال ﷺ: يجب على الفقير أن يقطع لسانه عن غير الحق وإذا أراد أن يتكلم بكلام فلازم عليه أن يعرف ما يترتب عليه وما نتيجته وإذا أراد أن يسكت فلا يسكت إلا عن حسن سكوت وحلم وإذا سئل الفقير سؤالاً فينبغي ألا يعجل بالجواب، وإذا أجاب فيكون جوابه عن تأمل وتفكر، وعلى الفقير أنه إذا رأى من هو أعرف منه أن يستفيد منه ويحذر من الكلام معه في الخطأ والزلل والغلط، والشيء الذي لا يعرفه لا يذكره ولا يتفوه به.

وقال: العاقل هو الذي يتفكر فيما بعد الموت وما يئول إليه بعد الحياة، ونفاذ عمره، وإذا ما تفكر العبد في غير ذلك صار شأنه الخطأ والزلل.

وقال ﷺ: الشيخ هو الذي يحضر مع مريده ويلاحظه في أربعة مواضع، الأول: حين النزع وخروج الروح من الجسد، والثاني: عند سؤال الملكين منكر ونكير في القبر، والثالث: عند العبور على الصراط والمرور به، والرابع: عند وزن أعماله بالميزان.

وقال: الصلاة على أقسام ثلاثة، صلاة تقبل بصلاة واحدة، وصلاة تقبل بصلاتين، وصلاة مردودة على فاعلها فلا تقبل بواحدة ولا باثنين، فأما التي تقبل بواحدة فهي صلاة الذي يرفع رأسه مع رفع إمامه رأسه ويسجد مع

سجوده، وأما الصلاة التي بصلاتين فهي صلاة من يرفع بعد الإمام ويسجد بعد سجوده وأما القسم الثالث فهي صلاة من لا يفعل الصلاة الأولى ولا الثانية.

وقال ﷺ: النفس على ثلاثة أقسام: النفس الأمارة وهي نفس العصاة والجاهلين، والنفس اللوامة وهي نفس المؤمنين المتقين وهم الذين إذا صدر منهم فعل حسن يفرحون، وإذا صدر منهم فعل قبيح يحزنون ويتألمون ويتذمرون ويلومون النفس على ما صدر منها والنفس المطمئنة وهي نفس العارفين وهم أهل اليقين.

وكان يقول: مجلسي مجلس الغم والعزاء، فإن الفقير إذا جلس به يستمر متأسفًا متحسرًا على زمانه الذي مضى وفاته وما فعل به شيئًا كان ينفعه ويقول: في أي سبيل ما مضى من عمري وأنا غافل أو ما عملت به عملاً صالحًا؟

من صفات الفقير

وقال ﷺ: الفقير هو الذي يكون قائمًا بطريقة الضابط لنفسه، وقال: لابد للفقير من الاتصاف والتلبس بخصال، ألا يفعل إلا ما فيه منفعة، من جانب معين معلوم لكي لا يؤديه فعل غير معين إلى الهلاك، وأن يكون متحملاً للشدائد صبورًا عليها، وأن يقطع جانب الرجاء من الخلق ويوصله بأكرم الأكرمين، وأن يخفي أسراره ولا يشكو إلى مخلوق مثله فإن الشكاية له شكاة

من مولاه الرب المالك مع أن مثل هذه الشكاية لا تفيد إلا جهل حق المحسن المتفضل، فنعوذ بالله تعالى، وأن يترك سؤال المخلوق في شيء خشية أن تسأمه النفوس وتستخف به، وتفع فيه، وأن يظهر للخلق القدرة والاستغناء عنهم، حتى يعرفوا منه أنه غير محتاج، وإذا عمل عملاً يحمد الله تعالى.

وقال ﷺ: من اللازم على الفقير أن لا يقضي أوقاته إلا فيما تكون عاقبته حسنة، ويحصل به مراتب للحصول على الخلق الحسن.

وعليه أنه إذا فعل فعلاً حسنًا لا يراه حسنًا في نفسه، ولا يعجب به ويعتمد عليه ، في وصول الطريق ، بل يعتقد أن أفعاله كلها مشوبة بالتقصير ، فلا يتعين منها طريقًا إلى الوصول بل ولا يصلح لذلك وإنما هو يكون عن محض فضل المنعم الفياض، وعلى الفقير ألا يفعل ما يجره لالتماس عذر فقد حذر القوم من ذلك فقالوا: إياك وما يعتذر منه.

قيمة الزمن

قال: الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك، فالعاقل من لا يضيع أوقاته النفيسة وعلى الفقير أن لا ينظر بقلبه ولا بعقله إلا بالحق حتى لا يحصل فيه السوء، لأنه بيت الرب فلا يشتغل بغير ربه، وأنه لا يشتغل بالأرزاق، فإنه متكفل بها من جانب الحق تفضلاً وإحسانًا، وأن لا يخلو عن الاتصاف بالخصال الحميدة، وألا يسلك سبيل التلوين والمقاطعة والمخاصمة مع الخلق

لأن عادة الله تعالى جارية في خلقه، وأن الأولياء لا يكون سلوكهم إلا على وفق ما اقتضته الحكمة الإلهية والقدرة الربانية، وبالجملة فلا يتم للفقير الدخول في باب الفقر حتى يطهر نفسه من درن العيوب والرذائل ويحليها بجلابيب الفضائل والفواضل.

وكل من عرف كرم الله تعالى وقدرته وحلمه حسنت عقيدته، وتنورت بصيرته، ولطفت شيمته، وحمدت سيرته وسريرته، وكل من توكل على الله حق التوكل أغناه وإذا طلب شيئًا أعطاه وكل من شاهد لطف الله وقطع باله عن الخلق بالحق فقد وصل وبلغ مراده.

وصيّة للشيخ يعقوب

وقال: يا شيخ يعقوب، لا تنظر إلى عيوب الخلق فإن نظرت إلى عيوبهم أظهر الله فيك جميع العيوب، وإن كان ما فيك عيب: يا شيخ يعقوب: لا تنحرف عن الطريق المستقيم ولا تراع هوى النفس وشهواتها بل راع التقوى وأنواع الطاعة وملازمة السنة والجماعة، وإذا جلست بالخلوة فاحذر الوسواس، وصف خواطرك من الكدورات والرعونات البشرية، وإذا صدر من أخيك ذنب أو عيب فاصفح الصفح الجميل، واستر الستر الجميل، وعامل عباد الله بالصلاح والنصح والتقوى، وعظم أهل الخشوع والمراقبة، ومن كان لك عليه حق أو له عليك حق فداره كي يعطيك حقك أو إلى أن تعطيه حقه، بل إذا كان لك عند أحد حق فسامحه والله يعطيك الحق ويعوض عليك، وكن مع الخلق بالأدب فإن

الأدب معهم أدب مع المولى، وقليل الأدب خير من عمل أو علم كثير، يا شيخ يعقوب: من اللازم عليك ترك الدنيا ومخالفة النفس والحذر، من الهوى والهوس فإنهما أعداؤك وإنما ذكرت هذه الوصية لك لأنها موصلة إلى الحق وباعثة على معرفة طريقه، واعلم أن التوفيق في جميع الأحوال إنما هو من الله ﷻ، وقد قال علي كرم الله وجهه: الصاحب الصادق والصديق الموافق هو الذي يمنع صاحبه من عمل الفعل القبيح، ولا يجوز للرفيق فعل ما نهى الله عنه، والصديق الصدوق هو الذي يضحك في وجهك ولا يستحي منك، والأخ الصادق هو الذي يدلك على طريق الاستقامة.

نصيحته لعلي بن عثمان

وقال يومًا: يا علي، لازمٌ عليك أن تسر السر، وتصلح الخاطر وتتركه حتى يرضى عليك خالقك، وقال: لو علم الخلق البذالون الإحسانات كثرة ثوابها لبذلوا كل شيء في أيديهم وقال: يا علي، إن السلوك صعب عسير، وكل من عرف الأقوال والأفعال والأحوال على وجه الشريعة سهل عليه ذلك الأمر، وكل من لم تكن أفعاله وأقواله وشيءونه مطابقة للسنة لا يكون اسمه مكتوبًا في دفتر الحق مع أسماء الرجال وقال: وصلت إلى رتبة لو أن شخصًا قعد على إحدى ركبتي وقطع منها قطعة بعد قطعة، وآخر قعد على الأخرى وأطعمني الحلاوة، كانت القعدتان عندي على حد سواء فلا فرق عندي بين تقطيع لحمي وبين أكل الحلاوة.

وفي آخر عمره ﷺ كان يقول: لو أن العالم فريقان فريق جلسوا على يميني وعملوا معي الجفاء والأذية وقطعوا من جسدي بمقاريض النار القطع الكبيرة، وجلس مثلهم على يساري وروحوا في بمروايح الند والعنبر كان ذلك عندي كله على حد سواء، لعلمي أن الكل من الفعال المطلق جلت قدرته.

وصيته لإبراهيم الأعزب

وقال: يا إبراهيم، كل من أراد أن يكون لك شيخًا فكن أنت مريدًا له، وكل من تقدم عليك فقدمه وعظمه، إياك والتقرب من أهل الدنيا، فإن القرب منهم يعشي القلب، والتواضع لهم موجب لغضب الرب، وتعظيمهم يزيد في الذنوب، وقد ورد في الحديث: **(من تواضع لغني لأجل غناه أذهب الله ثلثي دينه)**، والتواضع لأهل الدنيا مذموم عند الله وعند الناس.

يا إبراهيم اتخذ الفقراء أصحابًا وأحبابًا وعظمهم وكن مشغولاً بخدمتهم، وإذا جاءك أحد منهم فانتصب له على قدميك وتذلل لهم، وإذا وقعت خدمتك معهم في حين القبول فاسألهم الدعاء الصالح لعلك تعمر لك مقامًا في قلوبهم، لأن الفقراء يعطون دولة في يوم القيامة كدور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقال: يا إبراهيم، لا تنظر إلى الفقراء بعين الحقارة، ولا تعيبهم، لأجل أفعالهم، فإنهم إذا صدر منهم فعل يظنه الناس قبيحًا فإنه عند الله مقبول، يا إبراهيم جاهد نفسك لكي تكون من الفقراء وكن شبيهًا بهم وفي صورتهم، فقد ورد: من تشبه

بقوم فهو منهم، ومن أحب قومًا حشر معهم، يا إبراهيم اجعل إرادتك الفقراء من صميم قلبك واصرف مقدورك في خدمتهم واطلب رضاهم.

وقال: لو عرف العالم كله رب الفقراء حق المعرفة مثل ما عرفه الفقراء، لانقطعوا عن معاش الدنيا وأحوالها بالكلية.

وقال: لو صرف أحدكم عمره كله في العبادة والطاعة من غير غفلة عنها ساعة، وترك وقتًا واحدًا من غير عبادة فيه كان كأن لم يكن يتعبد أبدًا، ولم تقاوم طاعات عمره عظم جرم ذلك الترك.

وقال: مقصودي أني لا أعرف أحدًا ولا أحد يعرفني، ومرادي أن أربط في عنقي حبلاً وأدور من المدينة إلى المدينة حتى ألحق نفسي بأهل السلامة الخالصين.

وقال ﷺ: الفقير الذي هو من أهل الله علامته أنه إذا سأل في شيء تقبل الله منه وأعطاه ما تمناه، والعاقل الكامل هو الذي إذا طلب شيئًا طلبه بإذن الله ومشيئته ومن علامة الفقير أنه إذا أعطي شيئًا أعطاه لوجه الله ومرضاته لا لشيء آخر غير ذلك.

وقال: إذا قال لك أحمد: أنا صعدت إلى السماء، وأنا أصعد إلى السماء فصدقه ولا تكذبه، فإن كان كاذبًا فكذبه عليه ولا يغيرك منه شيء، وإن كان صادقًا وكذبته أو أنكرت عليه فالضرر حاصل لك أنت.

وقال: من اللازم على الفقير أن يتقيد بملابسة الكمالات وبتحصيلها في أي موضع حل به وسار إليه حتى إنه يصير كل وقت في ازدياد من الكمالات، فقد ورد في الحديث الشريف قول الرسول ج: **(من تساوى يوماه فهو مغبون)** وقال: لا تخالط أحدًا لأجل الدنيا ولا تعامله، ولا تصاحب أحدًا من أهلها كي لا يحصل لك من مجلسه وملازمته نقصان.

وقال: إذا كنت تعرف علمًا منتفعًا به فعله للناس حتى ينتفعوا به ويظهر أثرك في الدنيا والآخرة.

وقال: العشق مصيدة الحق يصيد به قلوب أهل الوفاء والوداد، وقال ولا يكون أحقر وأرذل من عبد ليس بينه وبين عباد الله ألفة وصحبة، بل مثل هذا لا يكون به نفع.

وقال: الإنسان الكامل هو الذي يكون مشتملاً على خصال حميدة، ومنها أنه إذا عاشره إنسان صاحب خلق غير حسن يعود بعشرته وله خلق حسن، ومنها أنه لا يمنعه مانع من الحق، والتكلم به وفعله مع أهله، فإذا كان لمائة ألف من الآدميين حقوق عنده يقوم لكل واحد منهم بحقه، ويوفيه له، ويقضي حوائج الجميع، ولا يتغافل عن أحد منهم أو يسوف به طرفة عين، ومنها أن أحدًا لا يطلع على أحواله، ولا على أسراره بل يخفى أمره، ويكتمه، ويعرف الإنسان الكامل بقبول دعائه، وإذا اجتمع عنده الخلق الكثير الذي لا يحصى عددهم ولكل حاجة، وضمير يعرف حاجة كل وضميره، من قبل أن يذكره له

وإذا لم يعرف ضميره كله فنصفه، أو ثلثه، أو ربعه، ويعرف مقامه أيضًا عند الله.

وقال: الإنسان الكامل هو الذي لا يفكر في زمانه الماضي ولا المستقبل من حيث الرزق والمعاش، بل يكون متوكلاً على الله معتمدًا في جميع أموره عليه تاركًا التنعمات الدنيوية والتلذذات النفسانية، معودًا نفسه على التعب والمشاق ويعرف إنعام الله عليه على إقراره له على الطاعات والعبادات، وإذا أعطى الله له رزقًا فلا يبخل به على خلقه، وعباده والفقراء وقال: لا يعجب أحد منكم بنفسه، ويقول في نفسه: إن الذي أعطاه الله ما هو عند أحد ولا بلغه أحد غيره، ولا يصل أحد إلى مكاشفاته به وخصائله، فإن هذه دعوى منه ينكرها الشرع الحكيم، ومخالفة له وهي كاذبة ولا يجوز الاعتماد على ذلك فإن ذلك غرور، وقال: إذا رأيتم شخصًا يضر الناس ويريد أن يحملوا ضرره وأن يعتمدوا أقواله وأفعاله ويكون قدوة لهم ويحب ترددهم إليه فكونوا من مثل هذا الشخص على حذر، ولا تخالطوه كي لا يحصل لكم منه الضرر.

وكان ﷺ يقول: إن تجارتي خدمة النساء الأرامل واليتامى وأحب أن أشهد نفسي في خدمتهم دائمًا وإذا رأيت يتيمًا يبكي تهتز مفاصلي وترعد أعضائي حنانًا له وشفقة عليه، وأخاف من بكائه.

وقال: حق الفقير أن يكون قبلة وإمامًا للناس يقتدون به، واللازم على الفقير أن تكون أقواله مطابقة للشرع الشريف المحمدي حتى لا ينخرط في سلك من اتخذهم الناس رؤساء جهالاً فضلوا وأضلوا.

وكان يقول: من اللازم على الفقير إذا نزل بمحل ينفع وينتفع، وقال: يحتاج الفقير إلى أشياء لا يسعه جهلها: أن يعلم ربع العبادات فيعرف الوضوء وفرائضه وسننه وشرائطه، وكذلك الحج وفرائضه وواجباته ومندوباته، وصلاة الجنازة وغسلها وأحوالها وشيءونها، وأن يكون فقيهًا في دينه، ومن اللازم عليه أن يراقب الشيخ الذي يعمره في حال الحياة الدنيا، والممات ويعتبره ويعرف حق الشيخ عليه، وأن يشفق على الفقراء والمساكين والآرامل والأيتام، وأن يتكلم الكلام الحق سواء كان مغضبًا أو غير مغضب فينهر بالمغضب من يستحق النهر من أرباب الكبائر والصغائر، وإذا أحب أحدًا فلتكن محبة خالصة لوجه الله تعالى ففي الحديث: **(شرط الإيمان وعلامته المحبة لعباد الله والألفة في الله)** ويعطي الله لأوليائه ومحبيهم الفردوس الأعلى، ولا يخافون يوم القيامة، فلا يحب الفقير أحدًا لحاجة ولا مصلحة من عز أو جاه، وقال: كل من ينظر للفقير والمسكين بعين الحقارة ويكسر خاطره كان محاربًا الله تعالى، لأن الفقراء جيوش الله وعياله وكل من حارب الله لا شك أن يكون من المغضوب عليهم من جانب الرب، ويكون مظهرًا لهذه الآية الكريمة وهي قوله تعالـــى: ﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة:٦١) فنعوذ بالله من ذلك وكان ﷺ يقول: اعشقوا واختاروا العزلة؛ وانظروا ما يظهر لكم ويحصل من الفوائد الكثيرة.

وكان يقول: تعلموا العشق من الشمع[١] فإن لونه أصفر وعينه ملآنة بالدموع وبدنه دائمًا في احتراق وانمحاق وذبول.

أحوال العشق

واعلم أن العشق له ثلاثة أحوال محمودة، الأكل القليل، والنوم القليل، والكلام القليل، فنتيجة الأول النوم القليل، ونتيجة الثاني العقل والفراسة ونتيجة الثالث الحكمة.

وكان يقول: إذا فعل الفقير عبادة جاء له في مقابلها من جانب الحق جُعْلَةٌ، فلو علمها ورآها علم أنها خير من الدنيا وما فيها، وكان يقول: إذا أعطى الله تعالى عبدًا سعادةً استمرت باقيةً إلى يوم القيامة، بإذن الله تعالى.

وقال: من الأدب اللازم على الفقير إذا ذهب إلى مكان أو دعى إليه ودخله ووجد ومكانًا خاليًا أن يجلس فيه كائنًا ما كان، ولا يتعداه ولو كان بأطراف المجلس، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يجلس حيث انتهى به المجلس، وليتحرز الفقير من تخطي الرقاب لأنه أفحش شيء وعليه أن يمشي مع خلق الله بالأدب والحياء، فيعطيه الله بذلك المراتب الجميلة ويدخله في رحمته.

---

(١) المراد به الشمعة المشتعلة.

وقال: من اللازم على الفقير أنه إذا تكلم فلا يكون كلامه إلا مشربًا كله من الحكمة والفوائد ومن علامة الفقير أن يكون مثل الماء الجاري إذا صاحب شخصًا به درن ونجس نظفه وعمره وقال تعالـــــى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ (الأنبياء: ٦٠) والفقير الواصل يطهر جليسه من الرعونات النفسانية، ومن الكدورات الشهوانية وقد اصطفى الله تعالى الفقراء من بين خلقه، فألبسهم خلعة القرب وحلاهم بحلية الحب وأجلسهم في بابه فهم دائمًا معه، لا يتوجهون إلى غير بابه لأنه لا سيد ولا مولى ولا ملجأ لهم إلا هو تعالى علوًا كبيرًا.

صفات الولي

وقال: إذا أراد ﷻ أن يدخل عبدًا من عبيده في سلك أوليائه ينعم عليه بأمور: أن يلهمه رعاية خلقه، وألا يرى طريقًا إلا طريق الاستقامة، وأن يقدره على مصافحة الملائكة ويمكنه من ذلك وأن يلهمه أن يقرأ كل مكتوب وإن كان أميًّا، فإذا أنعم الرب بهذه الخصال الأربع على عبده من عبيده كان ذلك العبد وليًّا عارفًا، وحينئذ فلا يبقى يتكلم إلا مع أهل التصرف، وإذا أحب أطلع على أهل العقاب والعقوبة، وعلى أهل الإحسان والمثوبة إلى غير ذلك مما امتاز به أهل الله وأولياؤه الكرام عفا الله عنهم.

حكايةٌ

ومما نقل من الحكايات أن ولية الله رابعة رضي الله تعالى عنها زوجة سيدنا السيد أحمد الكبير ﷺ قالت: بينما كنت نائمة فاستيقظت من نومي فما وجدت سيدي السيد أحمد الرفاعي عندي في البيت فصعدت إلى السطح ثم نظرت له فإذا هو عفر جبهته بالتراب ووضعها على الأرض، وقد تغيرت محاسنه بالتراب وهو يتضرع إلى الله ويبكي، ثم إنه رآني فدعاني عنده، فلما أتيته قلت يا سيدي لا تخف فإن الله تعالى يغفر لك ذنوبك إن شاء الله فما سبب هذا البكاء؟ فقال: يا رابعة سيأتي للخلق قحط وغلاء عظيم أشد من قحط نبي الله يوسف عليه الصلاة والسلام ولا طاقة للخلق بتحمله، يا رابعة أدعو بتخفيفه

ورفعه إذا نزل وأنت تؤمنين على دعائي، واعلمي أنه إذا حل هذا الغلاء بالخلق ونزل بهم فأنا أود أن الله يقبض روحيَ في ذلك الحين ويرفعه عن الخلق ثم إنه دعا دعاء كثيرًا وهي تؤمن عليه طول الليل وإلى طلوع الفجر ثلاثة أيام بلياليها.

ثم بعدها عرض له مرض الموت ﷺ.

وروي أنه لما ابتلي بمرض الموت سأله الشيخ يعقوب يا سيدي إن في هذا المرض يكون الانتقال من دار الفناء إلى دار البقاء؟ فقال السيد: نعم، هذا مرض الموت، ولكن كان أصحابه قد سألوه سابقًا على زمن هذا المرض وهو في حالة الصحة من عمره فقال لهم: قال لي بعض العارفين: إنه سيكون عمرك مائة سنة وكان إذ ذاك الشيخ يعقوب في الجماعة، فسمع أيضًا هذا الجواب، فقال له: يا سيدي كيف تقول لنا: إن هذا المرض مرض الوفاة وقد سمعنا منكم سابقًا أن عمرك مائة سنة، فأنتم إلى الآن لم تبلغوها؟ فقال السيد: ما قلته صحيح، وهو الواقع غير أني وهبت ما بقي منه لأجل مصالح عباد الله تعالى.

وصيته لخليفته

ونقل أنه قد حضر عنده في مرض الموت أهله وأولاده وعشيرته، ومريدوه وسيما الأكابر وأرباب الإشارات، وكان منهم سيدي علي ولد أخيه فقال له سيدي علي: يا سيدي اعملوا وصيةً نعمل بها، فقال له السيد الكبير: يا

علي من عمل صالحًا فقد نفعه، ومن عمل سوء فقد ندم عليه حيث لا ينفع الندم.

وسأله سيدي علي مرة أخرى الوصية فأجابه بمثل ما ذكر، وكان مراد سيدي على أنه يوصي له في الخلافة من بعده ثم إن السيد الكبير قال له في ذلك الوقت، يا سيد علي أنت شيخ بني عثمان والخليفة بعدي، ثم إن السيد الكبير قال: يا ولدي غدًا أي يوم له؟ قال: يوم الخميس، قال: غدًا يوم يحضر فيه الملائكة الكثيرة، وفي قدر كل نفس يتنفسه العبد ينزل على الخليفة نعم لا تحصى، وينصب من الغنائم فيه ما لا يستقصى، بحيث تكون تلك النعم والغنائم توازن ما أنصب ونزل منها من أول عمرنا إلى الحين، فأكثروا فيه من الدعاء والتضرع.

وقال: يا علي، اعلم أنه وقع بيني وبين الله معاهدة منها أنه يوصلك إلى طريقه، فكن على النظافة والطهارة دائمًا، وأفعالك اجعلها مقبولة مطابقة للشرع وكن موافقًا للفقراء في مراتب كمالهم.

وفاتــــــه ﷺ

ونقل أنه لما اشتد المرض على السيد الكبير بكى عليه بكاء شديدًا سبطة السيد إبراهيم فلما سمعه السيد الكبير جده وهو يبكي وينتحب منعه من البكاء ونهاه، وقال له: أتبكي على جدك وجدك قد تصدر في سبعين ألف مجلس وزينة

ورتبة؟ فقال له سيدي إبراهيم: يا سيدي هل أبو الفتوح بن خضر صاحب مجلس إسكندرية من أهالي هذه المجالس التي ذكرت بوصفها؟

فقال السيد الكبير: لا ، فقال سيدي إبراهيم: أعزاء مصر وأولياؤها وأصحاب مجالسها من هؤلاء؟ فقال: لا، فقال: يا سيدي فما هؤلاء المجالس ومشايخها؟ فقال له: هؤلاء المشايخ الذين ذكرتهم وسألتني عنهم هم أهل مجلس أم عبيدة، وأما الذين قلت عليهم أنا فهم مشايخ مجالس غير هذا البلد التي تعرفونها لا يعلمهم ومجالسهم إلا الله تعالى، وهم في جزائر البحر المحيط.

وانتقل ﷺ في ذلك الوقت إلى جوار الله ربه، وكان ذلك يوم الخميس حادي عشر جمادى الأولى سنة ثمانين وسبعين وخمسمائة وقت الظهر وغسله الشيخ الحافظ تقي الدين الفقيه الفقير النهروندي. وحمل جنازته السيد الكبير الحاج خالد، ودفنوه في قبة جده لأمه الشيخ يحيى النجاري وصلى عليه في رواقه رحمة الله عليهم أجمعين.

روى عنه أنه استمر معه الإسهال مدة شهر كامل وما تأوه منه ولا تضجر، وكان في كل يوم يقضي الحاجة ثلاثين مرة فأكثر وفي كل مرة يفعلها يجدد الوضوء وعقب الوضوء يصلي ركعتين شكرًا لله تعالى، رحمه الله تعالى وتغمده برضوانه، وكان آخر كلامه من الدنيا: لا إله إلا الله محمد رسول صلى الله عليه وسلم.

ونقل أنه لما توفي رآه شخص في المنام أنه جالس بين فقرائه وهو يقول لهم اقرءوا القرآن فقال له واحد منهم: يا سيدي والذي لم يحفظ القرآن كيف يقرأ؟ فقال له: اقرأ، اقرأ قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن ، كله فإذا قرأتها ثلاث مرات، فكأنما قرأت القرآن كله، وجعل له ثواب من قرأ ختمة كاملة، فضلاً من الله ومنَّة.

ونقل أن رجلاً توجه إلى قبر سيدي أحمد الرفاعي ليشكو له من أمور الدنيا، فلما شرع في ذلك سمع صوتًا من داخل قبره يقول: أنت رأيتني بعينك في حال حياتي وسمعت مني بأذنك نصائحي وتعرف طريقتي، فكيف تجيء إلي اليوم وتشكو من الدنيا وتلتفت إلى الدنيا وأمورها؟

ونقل عن ذلك الشخص أنه قال: ذهبت لأزور قبره فتوجهت إليه فاشتكيت إليه عدم قضاء حاجتي فسمعت صائحًا يقول: قد قضيت حاجتك ورفع دعاؤك في حيز القبول.

ونقل أن السيد علي ﷺ قال: كنت يومًا في الخلوة عند خالي السيد الكبير وهو بها وكنا وحدنا، فبينما نحن جلوس إذ قد أحسست برجل قد دخل الخلوة عندنا أسمع ممشاه ولا أرى شخصه، فبعد قليل نظرت في جانب الخلوة وإذا بشخص جالس عند السيد ما رأيت له صورة قط وما رأيت مثل شكله أبدًا، فبقي مدة يسيرة متمتعًا بحال السيد.

ثم قام وتوجه من شباك البيت، وراح وصعد في الهواء كالبرق، فسألت خالي عن هذا الرجل، فقال لي: أنت رأيت هذا الرجل؟ قلت: نعم رأيته، قال يا سيدي، على هذا الرجل أقامه الله على البحر المحيط وجزائره خادمًا ومتوليًا بأموره، وله ثلاثة أيام في غياب مع الحق تعالى وسببه أن الله تعالى أرسل إلى الجزائر مطرًا غزيرًا فوقع في خاطر هذا الرجل اعتراض، وهو أنه لو كانت هذه الأمطار وقعت في الربع المسكون من الأرض لكان خيرًا ينتفع به عباد الله، فعاتبه الله على ذلك وغضب عليه، فقال سيدي علي: فما قلتم له حيث وقع له فعل ذلك؟. فقال السيد الكبير: قد استحييت منه، فقلت: يا سيدي لو أذنتني في قول شيء له، فقال لي السيد أصدقًا، ما تقول، فقلت: نعم، فقال لي: اخفض رأسك إلى الأرض فخفضتها فسمعت من جهة رأسي صوتًا يقول لي: ارفع رأسك فرفعتها ورأيت نفسي في جزيرة البحر المحيط.

فتحيرت في أمري وتفكرت في أحوالي وصرت دائرًا في الجزيرة فرأيت ذلك الشخص الذي كان عند خالي في الخلوة فسلمت عليه فرد علي السلام فحكيت له صورة الحال التي ذكرتها عند السيد، فقال: صدقت، ثم قال لي: يا سيدي علي أرجو منك أنك تعلق خرقتي على رقبتي وتشهرني في هذه الجزيرة وتنادي علي بأعلى صوت هذا جزاء الذي يعترض على الحق تبارك وتعالى فسحبته بين عوالمها، فبينما أنا أفعل به ذلك وإذا بصوت عال من جهة العلا يقول: يا سيدي علي يكفي هذا الفعل بهذا الإنسان فأطلقه، فإن الملائكة كلها بكت لأجله وأشفقت عليه فشفعها الله فيه وعفا عنه، فلما سمعت هذا الخبر

غاب عقلي واندهشت وتحيرت في أمري، فلما رجع عقلي وتراجع أمري رأيت نفسي عند خالي وهو السيد الكبير وسأل خالي على ما رأيت وما جرى، وكذلك أنا ما قلت له على شيء من هذه الأمور بل أخفيتها.

روى شيخ الإسلام عبد الله اليافعي في **(خلاصة المفاخر)** أن بعض المنشدين كان ينشد يومًا من الأيام بحضرة السيد أحمد الكبير فاضطرب الشيخ الكبير من سماعه بوجده اضطرابًا زائدًا فوق الحد وغلب عليه الوجد ومقام الجذب وتزايد حاله، وكان ذلك الحال هو سبب مرض وفاته ﷺ، والأبيات التي أنشدها ذلك المنشد له قدس سره، هي:

إذا جن ليلـــي أســـتهيم بـــذكركم   أنوح كما نـــاح الحمـــام المطـــوق

وفوقي سحاب يمطر الهـــم والأذى   وتحتـــي بحـــار بـــالهوى تتـــدفق

سلو أم عمرو كيف بات أســـيرها   تحل الأسارى دونه وهـــو موثـــق

فلا هو مقتول ففي القتـــل راحـــة   ولا هـــو ممنـــون عليـــه فيطلـــق

قال في **(النفحة المسكية)** في شأن سيدي أحمد الرفاعي شهد له سيد العجم والعرب بصحة الوصلة والنسب، وذلك عام حج ﷺ وقف تجاه الحجرة العطرة النبوية، وقال: السلام عليك يا جدي، فقال عليه أفضل صلوات الله: وعليك السلام يا ولدي، فتواجد لهذه المنحة الجليلة وهام وقال منشدًا:

في حالة البعد روحي كنت أرسلها تقبل الأرض عني وهــي نــائبتي

وهذه دولة الأشباح قــد حــضرت فامدد يمينك كي تحظى بها شــفتي

فمد له رسول الله صلى الله عليه وسلم يده الشريفة من قبره الكريم، فقبلها في ملأ يقرب من تسعين ألف رجل والناس ينظرون يد النبي صلى الله عليه وسلم ويسمعون كلامه، قال والدي نفعنا الله به: وقد كان والدي عز الدين عمر الفاروقي قدس سره من حجاج ذلك العام وشاهد ذلك بعينه، وقال: كان الزوار ممن حضر الشيخ ابن قيس الحراني، والشيخ عبد القادر الجيلاني المقيم ببغداد والشيخ عدي الشامي وشاهدوا ذلك هم وغيرهم رضي الله عنهم، وقد أدركت بحمد الله خمسة رجال من حجاج ذلك العام ومن الذين تشرفوا بذلك المشهد الكريم(١).

---

(١) قال صاحب البرهان المؤيد: والقصة متواترة لا تقبل الدفاع، وقد قال شيخ الإسلام السيد سراج الدين الرفاعي شعرًا:

أبو العلمــين ابــن الرفــاعي ســيد لــه فــوق هامــات النجــوم مكــان

وبعــد تقبيــل اليمــين مزيَّــةً يقــال فــلان حازهــا وفــلان

علو مرتبته

وقد طاب لي أن ذكر شيئًا قليلاً من علو مرتبة ولاية السيد الكبير وما من الله به عليه من سمو المنزلة وعظيم الرفعة التي قدمته على أولياء الله الكبار، والعبيد الأحرار، منه ما نقله لنا الولي الشامخ الأركان الشيخ عبد الرحمن بن الشيخ يعقوب بن كراز عليهم الرضوان، ورواية عن أبيه الولي المحبوب الشيخ يعقوب أنه قال: حدثني سيدي الشيخ بدر ابن بنت شيخنا القطب الصمداني الشيخ منصور أنه كان في بعض الأيام جالسًا يحدث الناس، فلما قضي المجلس وانصرف الناس وبقي سيدي وأنا ولم يكن معنا ثالث، فخطر في سري خاطر، فقلت: أشتهي أتعرى وألصق جسمي بجسم سيدي حتى لا تمسني النار.

وقال: فلم يتم خاطري حتى ناداني- أي: بدر- تعرَّى وتعالَ، قال: ففرحت بذلك وانشرح صدري لبلوغ ما أضمرت له، ثم إني خلعت ثيابي وجئت إليه، فلما قربت منه وأردت أن أحضنه صرخ صرخة عظيمة ولطمني ورماني على وجهي، ووقع هو على الأرض، وهو يخور كما تخور الدابة، فبقي كذلك ما شاء الله تعالى، وسمعته يقول في غشيته: نعم نعم، ويكرر مرارًا.

فلما أفاق ناداني- أي: بدر تعالَ، فجئت إليه وأنا أبكي فقال: ما يبكيك؟ فقلت: كيف لا أبكي وقد جئت فلطمتني ورميتني، فقال: يا ولدي لما قلت لك: تعر غارت الربوبية وخرج لك سهم القدرة فدفعتك عنه وأخذته عنك بنفسي، ثم

إني حضنته وقلت له أي سيدي إني سمعتك تقول في غشيتك نعم نعم، قال: يا ولدي أسمعتني؟ قلت: نعم، فقال: أما تعرف السيد أحمد ابن أختي الذي يجيء إلينا في كل سنة وجعل يصفه لي فقلت له: بلى، فقال: بينما أنا في الموضع الذي وصلت إليه وإذا به قد جاءني وصعد إلى مكان لا أعرفه ولا أدريه ولا وصلته ولا أعلم إلى أين وصل، فلما رأيته أخذتني الغيرة منه فأخذني النداء، أي منصور تأدب هذا السيد أحمد حبيبنا تظهره على غوامض غيوبنا، أي منصور: هذا السيد أحمد نائب الدولة المحمدية، وعروس المملكة المصطفوية، وشيخ جميع الأمة المحمدية وشيخك فقل: نعم، فقلت: نعم، نعم، فقال نحن نتصرف بملكنا كيف نشاء فقلت: نعم نعم، ثم إني حملت الغاشية بين يديه وأخذت العهد على يديه، فأنا شيخه بالخرقة، وهو شيخي بالخلوة والخلفة.

نبذةٌ
عن مناقب الشيخ إبراهيم الأعزب الرفاعي

ذكر الشيخ عبد الله اليافعي في **(خلاصة المفاخر)** أنه قال: إن الشيخ أبا المجد سفيان الواسطي قال: كنت يومًا جالسًا في مجلس سيدي إبراهيم وهو يقول لأصحابه بعض كلمات، من جملتها أن الله تعالى قد أعطاني مقامًا حسنًا منه أن كل من حضر إلى مجلسي تصرفت فيه بالقيام وخلافه فإذا أردت أنه يقوم قام وإذا أردت أنه يستمر قاعدًا استمر قاعدًا.

قال الشيخ أبو المجد في نفسه: الشيخ إبراهيم ما هذه رتبته فأنا ما أجده يمنعني من القيام والقعود، فاطلع سيدي إبراهيم على خاطر هذا الرجل من طريق الكشف وتوجه إليه فقال: يا أبا المجد إن كان لك طاقة على القيام فقم من مكانك، فأراد أن يقوم وهم به واجتهد قال الشيخ أبو المجد فما قدرت أن أقوم وقد عجزت حيلتي وضعف حولي فجاء بعض الأحباب ودخلوا إلى تحت إبطي وأوصلوني إلى محل منزلي ونومي فاستمررت شهرًا كاملاً بهذه الحال، وأنا مقعد منقطع عن الحركة.

ثم إني تأملت في سبب ذلك ومن أي مكان جاءني فألهمته وأن سببه الحقيقي هو إنكاري دعوى سيدي إبراهيم المذكور، واعترفت بذنبي وتضرعت إلى الله، وعزمت على أن لا أعترض أبدًا على أحد من أهل المقامات ثم أتيت إلى سيدي إبراهيم واستغفرت من ذلك الفعل، وقام سيدي إبراهيم وأتى عندي وأخذ بيدي، وقال: قم وآمن، فقمت لوقتي ومشيت وزال عني وبرئت من تلك العلة ببركته ﷺ.

ونقل أن الشيخ صالح بن فرج العياداني قال: سمعت من والدي أنه قال: سمعت من الشيخ إبراهيم الأعزب أنه قال: ما يزوروني أحد إلا بإذني وتمكيني، قال الشيخ صالح: فقلت في نفسي أنا أزورك إن أذنت لي وإن لم تأذن فلما أتيت إلى باب الرواق رأيت سبعًا مهاب الصورة، واقفًا على باب الرواق فخفت منه والحال أني معتاد بصيد السباع، فرجعت من باب الرواق فنظرت

إلى الباب من رجوعي فرأيت السبع واقفًا بالباب، والناس يدخلون ويخرجون من الباب لزيارة الشيخ، وتحققت أن هؤلاء الجماعة غير ناظرين السبع الذي هو واقف بالباب، ولو نظروه مثل ما أنظره لما دخلوا الباب بل ولا قربوا منه، ثم إني ذهبت في ذلك اليوم وتركت الزيارة وأتيت لها يومًا آخر.

فلما وصلت إلى باب الرواق رأيت ذلك السبع واقفًا بالباب والناس يدخلون ويخرجون إلى الرواق، على جري العادة فأردت الدخول معهم فزأر علي فخفت وفررت.

ثم إني صممت على العزم على الزيارة من غير إذن فلم تتيسر لي الزيارة وهذا المانع يمنعني، ثم إني توجهت إلى ولي وعزيز من مشايخ البطايح وشرحت له حالي هذه، فقال لي: لابد وأن يكون عندك شيء من الإنكار على ذلك الشخص الذي تذهب إليه فقلت: نعم، فقال لي: تب عنه واستغفر، فتبت واستغفرت وامتثلت أمره ورجعت عن ذلك الإنكار.

ثم إني توجهت ثاني يوم إلى زيارته فما رأيت السبع في مكانه بالباب، فدخلت للزيارة وقلبي مستأذن سيدي إبراهيم، فلما وصلت له ورآني قال لي مرحبًا بك فألقيت نفسي على قدميه، ورجوت أن يعفو عن ذنبي، فقال: قد عفونا عنك.

نقل عن أبي المعالي غانم بن مسعود الجوهري، قال: أردت السفر إلى بلاد العجم قاصدًا التجارة وأتيت إلى أخذ الوداع من سيدي إبراهيم، فقال الشيخ

إبراهيم: إذا حصل لك ضرر ومشقة في سفرك وطريقك فاذكر الله، ثم تذكرني، ثم إني توجهت من عنده إلى السفر فلما أخذت فيه، وبينما نحن سائرون في الطريق وإذا بقطاع الطريق خرجوا علينا من بعض صحاري خراسان فنهبوا جميع حوائج الناس في ذلك الطريق ففعلت كما قال الشيخ وإذا بي أراه من على بعد فوق جبل وهو واقف وفي يده عصا يشير بها إلى جهة قطاع الطريق أن ارجعوا فعاد القطاع من ذلك الحين عن أذية الناس وقطع الطريق عليهم ورجعوا عن ذلك وردوا حوائج الناس إليهم، ثم قالوا: إن الله تعالى قد رد عليكم أموالكم وقد سألتهم عن سبب رد الحوائج فقالوا: قد رأينا شخصًا فوق الجبل وفي يده عصًا وهو يشير لنا، ويقول: ردوا الحوائج لأهلها وإلا هلكتم، جميعًا في هذا الوقت فرجعنا منه ورددنا الحوائج وتوجهنا إلى خراسان، وكان ذلك من بركة إبراهيم الأعزب.

وروي عن الشيخ الإمام يوسف العسقلاني قال: زرت سيدي إبراهيم فشكوت شدة مرضي له، وما أقاسي فيه وأكابد من الأحوال، فقال له: لا تتحير من هذا المرض فإنك لا تموت فيه بل تعيش بعده ستة أعوام، ثم إن ذلك المريض شفاه الله سريعًا ببركة الشيخ وعاش المدة المذكورة.

وقيل: إن اليوم الذي توفي فيه الشيخ إبراهيم الأعزب قد كسفت فيه الشمس أخبر بذلك مشايخ الشام وجميع فقرائهم فإنهم في ذلك اليوم كل منهم قال لجماعته: اعلموا أن في هذا اليوم تكسف شمس السماء وتنقل شمس الحقيقة

فقال كل شيخ منهم لأصحابه: شمس الحقيقة في هذا العصر هو السيد إبراهيم الأعزب رضي الله عنه.

وروى أن الشيخ الزنجي قال: إن الشيخ الزرقولي كان عارفًا بالله تعالى شائعًا مجتهدًا محصلاً للعلوم العديدة وكان مشهورًا بين الناس فكتب له يومًا سيدي إبراهيم الأعزب مكتوبًا وأرسله له مع قاصد، فلما وصل به إليه أعطاه له الفقراء ووضعه تحت ركبتيه إهانة من غير أن ينشره ويقرأه علينا، فلما رجع القاصد لسيدي إبراهيم وأخبره بالخبر فقال نحن أيضا لا ننشر له اسمًا حيث لم ينشر لنا مكتوبًا فمنذ ذلك ما انتشر حاله في غير بلده وتبرأت أصحابه ومريدوه منه، واشتغلوا بأمر المعاش وتركوا رياضات النفوس والمجاهدة والمسكنة والتواضع وطريق الفقر بالمرة.

وروي أن الشيخ أبا بكر الهوازني سأل كنز العارفين فقال له: كم صار قطبًا من فقراء السيد الكبير سيدي أحمد الرفاعي؟ فقال له: يا ابن الهوازني إن الأقطاب من فقراء سيدي أحمد الرفاعي كثير جدًا ولا ينقطعون إلى يوم القيامة ولكن بعد وفاة السيد الكبير تظهر أقطاب من فقرائه، ومن جملتهم يظهر في جهة الرملة قطب كبير اسمه أبو بكر ويلقب بالزاهد قطب الدين، وهو على جانب كبير من الزهد ومن أهل الكشف والسيرة الحسنة وطريق السلوك، وقد تستمر له تلك الكرامة والفراسة وهو يأخذ العهد على سيدي مجرد الأكبر، ومن

جملتهم سيدي السيد إبراهيم الأعزب فإنه قطب الأقطاب لأن طبعه التقيد بخدمة الفقراء في كل موضع يراهم فيه.

فإذا وقع بعد على فقير يغسل له رجليه ويقبلهما وينصفه من حقه، وهذا القطب يرزقه الله تعالى ولدًا صالحًا اسمه محمد ويكون له ظهور كبير ويصير في مرتبة والده من العارفين الأكابر بل يعرف والده قطب الزاهدين وسائر عقبه ونسله وذريته يظهرون من أهل الحرمة والجلالة والاعتبار ويكون لمحمد هذا ولد اسمه عبد الرحمن يظهر في مرتبة جده الزاهد قطب الدين والله أعلم ونقل عن كنز العارفين أنه قال: يظهر بعد وفاة السيد الكبير في جانب الشام قطب كبير اسمه السيد محمد ويكون متمكنًا في قبيلة من العرب، ويصله بالمقام الشيخ السيد أحمد الأكبر، ويتفل في فمه بريقه ويحصل له من ذلك الريق المتفول عليه البركة فيرزقه الله تعالى ولدين ذكرين وبنتين وكلهم صالحون عابدون أرباب كرامات وأحوال ومسكنة وتواضع أبدًا دائمًا، قامعون نفوسهم يرتزقون من الأرض، ويكون لهم أولاد علماء فضلاء من أهل النظم والنثر والحكمة والفراسة، وتكون نساؤهم من أهل الفراسة والهمم العلية ويقطعون عمرهم وزمانهم في المعاشرة والمصافحة والتبعات، ويميلون إلى الفقراء ويحسنون إليهم ويحبونهم ويكونون دائمًا أبدًا مدينين من السخاء والكرم لكثرة ما يأخذ منهم الناس ويتكرمون به ويسخون، وإذا نزل بهم ابنٌ يستمرون معه وفي خدمته والتقيد به إلى أن يذهب في سبيله، ونحن إن شاء الله يكون قلبنا معهم ونظرنا نلاحظهم والله تعالى أعلم بالصواب.

ونقل أن الشيخ الزنجي قال: كان في ليلة عاشوراء يحصل محيا بأم عبيدة يصلون فيها على الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام يحضرها جميع الخلق ويقصدونها من البلاد البعيدة فدخل الشيخ عبد الرحمن إلى الذكر، وذكر حتى غاب عقله والفقراء جميعًا ينظرون ويشاهدون، فدخل السيد الشيخ علي بن عثمان إلى المجلس أيضًا وذكر الله تعالى، ثم في أثناء ذكره ارتفع إلى الهواء وطار فيه، فعجب من حاله جميع من حضر المحيا، فقال بعض من حضر وسمع ورأى: اعلموا أن هذه الحالة ما هي لغيرة على السيد علي بن عثمان هذا، فإن سيدي أحمد الرفاعي السيد الكبير كان يقول: نحن أعطينا حالنا للسيد الشيخ علي بن عثمان، فرضي الله تعالى عنهم أجمعين، فعلى هذا لا يتعجب من هذا الحال، نفعنا الله ببركاتهم أجمعين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا، والحمد لله رب العالمين.

*****